القناع في شعر الدكتور . زهران محمد جبر
الدلالة ..والتشكيل

محمد محمود إبراهيم حفني
قسم الأدب والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين ، القاهرة ، مصر
البريد الإلكتروني : mmh1975000@gmail.com

الملخص :

تعد هذه الدراسة – والتي تناولت القناع في شعر الدكتور. زهران محمد جبر.. الدلالة والتشكيل – كاشفة لظاهرة من أبرز الظواهر الأدبية التي ساهمت في تشكيل التجربة الشعرية والأداة الفنية لدى الشاعر المعاصر ومن هؤلاء الشاعر زهران جبر ، حيث جاءت هذه الظاهرة (القناع) بدلالتها وتشكيلها حاملة لجانب كبير من أبعاد تجربته الشعرية ، وقد قام البحث على مقدمة وثلاثة فصول تناولت حياة الشاعر وإبداعه ومفهوم القناع ، وأبعاده الدلالية وتشكيلاته الفنية ، وقد برزت هذه الظاهرة مكثفة بمعجم من الدلالات في شعر الشاعر، وكانت كإلماعة (إشارة) إلى شخصية تاريخية تراثية ، أو نص تراثي ، أو قصة سردية أو حوار درامي ؛ بهدف استدراج مشاركة القارئ والمتلقي لشعره ، ثم انتهى البحث إلى خاتمة ضمنت أهم النتائج كان من أبرزها : أن القناع بدلالته يمثل جانباً كبيراً من جوانب التجربة الشعرية عند الشاعر زهران جبر ، وينفتح على كثير من القراءات والتأويلات ، وقد استطاع الشاعر من خلاله تفسير كثير من أحداث الواقع والتاريخ ، وأن يقدم لوحة رمزية درامية تربط بين التراث والمعاصرة ..كما يُعد شعره – من خلال هذه الظاهرة التي نجحت في حمل تجربته – رساليًا يجمع بين الذاتية والجماعية .

الكلمات المفتاحية : القناع ، زهران محمد جبر ، الدلالة ، التجربة الشعرية .

The Mask In The Poetry of Dr Zahran Muhammad Jabr Significance And Diacritics.

Mohamed Mahmoud Ebrahim Hefni

Department of Literature and criticism ' The College of Islamic and Arabic Studies for Boys ' Al-Azhar University ' Cairo ' egypt

Email : mmh1975000@gmail.com

Abstract :

This study, which dealt with the mask in the poetry of Dr. Zahran Muhammad Jabr Al - Dalala and its formation reveals one of th mos prominent literary phenomena that contributed to the formation of the poetic experience and artistic tool of the contemporary poet and among these poet Zahran Jabr, where this phenomenon (the Mask) Came in its significance and its formation bearing alarg aspect of dimensions His poetic experience The Research was based on an introduction and three chapters dealing with the life of the poet and his creativity and the contcept of persuasion and its semantic dimensions and artistic formations Could this phenomenon be popped up? Then the search ended with an implicit conclusion, that (the Mask) , in its Significance, represents a major aspect of the poetic experience in in the poetry of. Zahran Jabr,and it springs to many readings and interpretations that succeeded in his campign.

' Keywords : The Mask –' Zahran Muhammad Jabr ' Significance The Poetic Experience0

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ،،

فإن شعر الدكتور. زهران محمد جبر يمثل جانبا كبيرا من جوانب الشعر العربي الحديث ؛حيث جسَّد الشاعر في تجربته كثيرا من قضايا الأمة العربية التي تخطو بها نحو الرقي والتقدم ، إلى جانب الوطنية الخالصة لوطنه الأم مصر ، مع التوجه الإسلامي القوي في شعره ، إلى جانب الشعر الذاتي والعاطفي ، الذي يحمل كثيرا من معاني الإنسانية ، وقد وظف الشاعر هذه القضايا في لغة فنية ، استطاع من خلالها إبراز أصالة انتمائه للشعر العربي القديم ، وتوظيف وسائل هذه اللغة بطريقة تعبيرية متعددة شكلا ومضمونا مواكبة لحراك الشعر العربي الحديث في أسلوبه راصدا ومستوحيا التاريخ والتراث ، بوعي فني مكثف .

ومع اهتمام بعض الباحثين وتناولهم لشعر الشاعر، ومنهم: أ.إبراهيم شعراوي في كتابه (تأملات في شعر د. زهران محمد جبر) مكتبة الآداب بالقاهرة ، ط أولى سنة ٢٠١٢م ، حيث تناول الكاتب في قراءات نقدية ديوان (قبض الريح) للشاعر مشيرا إلى بعض الموضوعات التي تناولها الشاعر في الديوان مثل: الحديث عن النوبة بلد الشاعر ، والشعر الذي جاء على لسان الحيوانات ،مع الإشارة إلى بعض الجوانب الفنية كالبحور الشعرية التي سار عليها شاعرنا .

كما جاءتْ بعض القراءات النقدية لبعض دواوين الشاعر في كتاب يحمل عنوانًا (من أبعاد الرؤية وآليات التشكيل) مكتبة جزيرة الورد بالقاهرة ، ط أولى ،

٢٠١٩م ، وهذا الكتاب من جمع وإعداد الشاعر ، والقراءات لثلاثة من أعلام النقاد الأكاديميين وهم :الدكتور.صلاح عدس ، والدكتور.مصطفى محمد أبو طاحون ، والدكتور . سعد أبو الرضا ، واثنين من الشعراء النقاد وهما : الشاعر والناقد . محمد حافظ ، والشاعرة الناقدة نوال مهني ، وقد تناولت القراءات النقدية لهؤلاء ثلاثة دواوين للشاعر ، حيث الرؤية الموضوعية وآليات التشكيل الفنية ، ومع القيمة النقدية لهذه القراءات ؛ إلا أنها لم تشر إلى آلية من آليات التشكيل الفني في شعر الشاعر وهي ظاهرة القناع ، حيث استطاع الشاعر من خلال هذه الظاهرة أن يتكئ على منجزات الحداثة في الشعر العربي الحديث وربط الماضي بالحاضر...وتوظيف ذلك في إبراز كثير من هموم المجتمع العربي وقضاياه، إلى جانب توظيف هذه الظاهرة في الجانب الذاتي ، كما أن استنطاق النص لدى شاعرنا يوحي بتعدد الدلالات ؛ لذا كان من أسباب اختياري لدراسة ظاهرة .

القناع عند الشاعر تتمثل فيما يلي :

ــ أن شعره يزخر بهذه الظاهرة التي توحي بتعدد الدلالات ، ولم أجد ــ فيما أعلم ــ أن أحدا قام بدراستها في دواوينه الأربعة .

ــ ما يحمله شعر الدكتور. زهران من مظاهر تجديدية كالخصائص الدرامية والرمزية والمعادل الموضوعي .

ــ رؤيته الخاصة من خلال تجربته الفنية التي تواكب قضايا عصره .

ــ تنوع تجربة الشاعر وربطها بين الماضي والحاضر من خلال الاتكاء على ظاهرة القناع .

وكان منهجي في هذا البحث ، المنهج الفني مع الاستعانة بــبعض المنــاهج الأخرى .

وقد انتهج البحث خطة ، جاء تقسيمها إلى مقدمة وثلاثة فصول ثم الخاتمة .

أما المقدمة : فقد تضمنت أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، والمنهج الذي سرت عليه .

وأما الفصل الأول : (حياة الشاعر..ومصطلح القناع) وفيه :

أولاً : حياة الشاعر وإبداعه .

ثانياً : مفهوم القناع وعلاقته بالرمز .

الفصل الثاني: أنواع القناع ودلالاته في شعر الدكتور. زهران محمد جبر.

الفصل الثالث: التشكيلات البنائية لظاهرة القناع في شعر الدكتور زهران .

الخاتمة : وفيها كانت الخلاصة لأهم النتائج التي توصل إليها البحث من خــلال الدراسة .

هذا وإني لأدعو الله عز وجل أن يلهمنا التوفيق والسداد والرشاد ، فيما نتناوله من هذا البحث ، إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو نعم المولى ونعم النصير..

الفصل الأول

(حياة الشاعر..ومصطلح القناع)

أولا : الشاعر...حياته وإبداعه :

ولد الشاعر الدكتور زهران محمد جبر في قرية أدندان النوبية التابعة لمركز عُنيبة بمحافظة أسوان في عام ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين من الميلاد ، وتدرج في مراحل التعليم المختلفة حتى حاز درجة الليسانس من كلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين ، والماجستير عام ألف وتسعمائة وخمسة وسبعين ، والعالمية (الدكتوراه) عام ألف وتسعمائة وواحد وثمانين ، وتدرج في وظائف التدريس الجامعي حتى حاز درجة الأستاذية عام ألف وتسعمائة وتسعين ــ ولا يزال الشاعر الناقد يواصل إبداعه الشعري والنقدي [١] .

والمتأمل في النتاج الشعري للدكتور . زهران ،يجد نتاجا كبيرا كما وكيفا ، ويتساءل ؛ كيف لشاعر بهذه القامة يُنتظر شعره هذه المدة الطويلة ؟! يقول الأستاذ. إبراهيم شعراوي : " كنت أُعجب كيف انتظر الدكتور زهران جبر هذه المدة الطويلة دون أن يقدم شعره للمتلقين ، وكان يحبسه عن الناس إلا فيما ندُر، وتحت الإلحاح قرر الإفراج عن شعره ، وسمح له أن يرى النور " [٢].

ومما يؤكد ذلك أن شاعرنا لم يطبع دواوينه إلا في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين في الفترة ما بين عام ٢٠١٢م ، وعام ٢٠١٨م .

---

(١) من مقابلة مع الدكتور. زهران في رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة الخميس ٢٠١٨/٢/٢م ويراجع : من أبعاد الرؤية والتشكيل في شعر د.زهران محمد جبر ، جمع وإعداد د.زهران جبر ، ص٩٢، مكتبة جزيرة الورد بالقاهرة ، ط ١ ، ٢٠١٩م.

(٢) تأملات في شعرد.زهران جبر، إبراهيم شعراوي ، ص٤، مكتبة الآداب ، ط١ ، ٢٠١٢م.

وقد أصدر الشاعر زهران جبر ــ منذ عام ٢٠١٢م وحتى ٢٠١٨م ــ أربعة دواوين شعرية ، وهي :

١ــ قبض الريح ، مكتبة الآداب بالقاهرة ، ط١عام ٢٠١٢م .

٢ــ حصاد الوهم ، مكتبة مصر بالقاهرة ، ط١عام ٢٠١٦م .

٣ــ السراب ، مكتبة الآداب بالقاهرة ، ط١عام ٢٠١٨م .

٤ــ تراتيل المساء ، مكتبة جزيرة الورد ، ط١عام ٢٠١٨م .

إذن ، فنحن أمام نتاج شعري ليس باليسير لشاعر كبير ، وإذا كان اسم شاعرنا الدكتور زهران جبر ليس له ذلك الرنين وهذه الشهرة التي تلتصق بشعراء آخرين ،وكان ذلك لعدم خروج دواوينه إلى النور مبكرا ، فلقد أثبتت شاعريته مكانته بين الأدباء ، وليس أدل على ذلك مما يلي :

.. فقد فاز بعدة جوائز وشهادات تقدير في النادي الأدبي في أبها والقصيم بالمملكة العربية السعودية في التسعينيات .

.. فاز بعدة جوائز في رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة ؛ حيث تم تكريمه عدة مرات وحصوله على شهادات تقدير من الرابطة أثناء مناقشة دواوينه .

.. نُشرت أعماله في عدة صحف ومجلات وبعض المواقع الالكترونية المهتمة بالجانب الأدبي والنقدي .

.. يقوم شاعرنا بأعمال أكاديمية علمية متعددة:

.. عضو سابق في اللجنة العلمية لترقية الأساتذة في جامعة الأزهر قسم الأدب والنقد .

.. عضو لجنة المحكمين لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر .

.. رئيس قسم الأدب والنقد الأسبق بكلية اللغة العربية بأسيوط .

.. رئيس قسم اللغة العربية وآدابها الأسبق بكلية الدراسات بنين بالقاهرة .

.. عضو اتحاد كتاب مصر ، وعضو لجنة النقد الأدبي فيه .

.. عضو عامل في رابطة الأدب الإسلامي العالمية ورئيس لجنة الشعر في فرع الرابطة بالقاهرة .

.. عضو رابطة الأدب الحديث بالقاهرة .

.. عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

.. عضو النادي النوبي العام بالقاهرة .

.. مستشار علمي لمجلة كلية اللغة العربية بجامعة السلطان الشريف علي الإسلامية ، بروناي دار السلام .

.. إشرافه ومناقشاته لعديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في كثير من الجامعات المصرية .

ولا يزال الشاعر الدكتور زهران جبر مخلصًا لإبداعه الشعري يكتب حتى هذه اللحظة ، ولم يصرفه العمل الأكاديمي ، والنقدي عن مواصلة الإبداع .

هذا ولم يحصر الشاعر فنه في غرض شعري واحد ، بل جعل قريضه في أغراض مختلفة ، تشكَّلت ما بين الشعر الوطني ، والاجتماعي ، والإسلامي ، والغزلي ، وشعر الرثاء ، والوصف ، والهجاء ، والمدح ...كما التزم في غالب شعره بالشعر العمودي ..ومزج الشاعر بين التراث والمعاصرة مستفيدا من قراءته العميقة للتراث العربي، والنتاج الأدبي والنقدي..بالإضافة إلى ثقافته النوبية العميقة التي أتاحت له الإجادة في توظيف الأساطير والرمزية في شعره .

وانطلاقا مما سبق فقد شهد ــ لشاعرية الدكتور زهران جبر ــ كثير من النقاد والشعراء .

يقول إبراهيم شعراوي : يمتاز شعر الدكتور زهران جبر، بتحرك صور الحياة فيه بتدفق وتسرع ..كما يرى في شعره أن القيم النبيلة هي أساس البناء للإنسان [١].

كما يؤكد عبقرية الشاعر زهران جبر ، الناقد د. سعد أبو الرضا قائلا : كلما استمعت إلى د.زهران جبر وهو يلقي قصائده تحضرني صورة أبي الطيب المتنبي وما يتميز به شعره من أصالة وجزالة في لغته الرصينة ، وتجربته الحياتية التي تميزت بالصراع والمغالبة ، والتأبي على مصاعبها وملماتها .. [٢].

ويبرهن د.صلاح عدس على شاعرية الشاعر فيقول : الدكتور زهران جبر شاعر مستقبلي لأنه يستلهم التراث ويحي الماضي وهو مرحلة جديدة ..تُعد امتداداً لشوقي وحافظ ، لبعث الأمة من رقدتها ..وهو شاعر إسلامي وطني ، ومفهوم الوطن عنده يرتبط بمفهوم الأمة الإسلامية والعربية والتي هي بمثابة منظومة كبرى بداخلها منظومة القومية التي تحوي بداخلها منظومة الوطن.. [٣].

ويرى الدكتور مصطفى أبو طاحون أن د. زهران شاعر صاحب رسالة ، فقد امتشق سيف فكرته وسنان قلمه مسهما في تشكيل وعي المتلقي متكئا على التنصيص والترميز ؛ولكل أنماطه ومقاصده الإبداعية ، التي تقرر رقي فن زهران الشعري وأهميته للتاريخ والأمة والأجيال القادمة خاصة.. [٤].

وهذا غيض من فيض في الحديث عن شخصية شاعرنا بأقلام بعض النقاد الذين أشرت إلى حديثهم ، وهناك الكثير من الكُتاب والنقاد والأدباء الذين أشاروا

---

(١) يراجع : تأملات في شعرد.زهران جبر، إبراهيم شعراوي ، ص٢٢،٢٣.

(٢) يراجع : من أبعاد الرؤية والتشكيل في شعر د.زهران محمد جبر ، ص٩٢،

(٣) يراجع السابق ، ص٢٦،٢٧.

(٤) يراجع السايق ، ص٥٧.

إلى القيم الشعرية في شعر د. زهران جبر ، ولكن لا يتسع مجال البحث هنا لذكرها ، لأن الحديث هنا عن ظاهرة من ظواهر التشكيل الفني في شعره ، وليس عن حياته وشعره بصورة مطلقة ، وإنني أشير إلى أن شعرد.زهران يحتاج إلى دراسات متعددة ، تهتم بقراءته .

وأما عن دراسات الدكتور. زهران جبر ، فهي عديدة ، ولعل أهمها :

.. الأدب المقارن بين الدراسة والتطبيق ، أسيوط ،١٩٨٢

.. فن القصة تاريخ ودراسات ، دار البيان بمصر ، ١٩٨٥م .

.. في الأدب المقارن ، دار البيان بمصر ، ١٩٨٥م .

.. مناهج النقد الرؤيا والواقع ،دار الأرقم للطباعة والنشر الزقازيق ، ١٩٨٩م .

.. صفحات من الفكر الإسلامي ، دار البيان ، ١٩٩٠م .

..عروض الشعر الخليلي ، جزءان ، المكتبة الأزهرية للتراث ،١٩٩١م .

.. تهذيب حيوان الجاحظ لابن منظور الأفريقي . تحقيق ودراسة ، دار الجيل ــ بيروت ١٩٩٢م .

.. في الأدب الجاهلي ، مطبعة الأزهر بأسيوط ، ٢٠٠٢م .

بحوث منشورة في الدوريات والمجلات العلمية والأدبية ومن أبرزها :

.. الأدب مصطلح وقضية .

..الرواية النوبية بين معياري اللغة والمضمون

..الأدب في المجتمع النوبي .

..الثقافة في شعر حافظ إبراهيم .

.. التيارات السياسية وأثرها في شعر ابن المعتز .

.. الحس الإسلامي في وطنيات الشعراوي .

الدراسات السابقة :

هناك بعض الدراسات السابقة التي تناولت بعض دواوين المبدع الشاعر د. زهران ومنها :

ــ تأملات في شعر الدكتور زهران محمد جبر ، للأستاذ/ إبراهيم شعراوي ٢٠١٢م . وقد قسم المؤلف الدراسة إلى ثلاثة فصول : الأول ، وأشار فيه إلى إيقاعات النوبة في شعر د. زهران جبر . والثاني ، وأشار فيه إلى الحيوان والطير والنبات في شعر د. زهران جبر، الثالث ، وذكر فيه بعض البحور الشعرية التي سار عليها الشاعر،وهي دراسة لديوان واحد من دواوين الشاعر(قبض الريح)، وقفتْ على جانب من موضوعات الشعر وموسيقاه عند الشاعر الدكتور. زهران جبر.

ــ من أبعاد الرؤية وآليات التشكيل في شعر د. زهران جبر ، وهي قراءة في ثلاثة دواوين ،لمجموعة من النقاد والشعراء ، جمع وإعداد د. زهران جبر ٢٠١٩م . وقد قامت هذه القراءة على خمسة محاور : الأول ،منظومة الأدب الإسلامي في شعر د. زهران بقلم د. صلاح عدس ، الثاني ،رسالية الشعر ، في قبض الريح ، للدكتور . مصطفى أبو طاحون ، الثالث ،ملامح التنوير في ديوان السراب ، د. سعد أبو الرضا ، الرابع ، أسلوبية النظم وهي عبارة عن رؤية نقدية في قصيدة المعتصم من ديوان السراب ، للشاعر محمد حافظ حافظ ، الخامس ، رؤية في ديوان السراب ، للشاعرة نوال مهني .

وقد أفدت من هذه الدراسة في التعرف على كثير من رؤية الشاعر لواقعه ومجتمعه ، وكذلك في التعرف على بعض الخصائص الأسلوبية لدي الشاعر ، ولاشك أنها دراسات قيمة تنبأ عن شاعر جمع بين الأصالة والمعاصرة .

ومما سبق ، يُـــدرك القارئ قلة الدراسات التي تعرضت لشعر د. زهران جبر، كما وكيفا ، وفي رأيي أنها كانت مجرد إشارات وملامح لبعض مضامين من شعر الشاعر.

ثانياً: مفهوم القناع ودلالته .

*** مفهوم القناع :**

لقد صار مصطلح (القناع) من المصطلحات التي ولجت النقد الأدبي الحديث كما سارت أكثر تناولا لدى النقاد العرب المعاصرين ،نتيجة لتـــأثرهم بالتيـــارات الحداثية في العالم الغربي ، واحتكاكهم بالثقافات الأجنبية ، ورغبة مـــن هـــؤلاء النقاد في تجاوزهم للمفاهيم التقليدية ، وسعيا منهم إلى آفاق معرفية تواكب تيار الحداثة في النقد الأدبي .

وإذا ما ذهبنا نلتمس مفهوم القناع في اللغـــة وعنـــد بعـــض النقـــاد العـــرب المعاصرين ، نجد أن القناع (Mask) في اللغة يعني كما جاء من معانيـــه فـــي معجم لسان العرب : ما تغطي به المرأة رأسها ..والقناع والمِقنعة : ما تُقنع بـــه المرأة من ثوب تغطي بها رأسها ومحاسنها.. وألقى على وجهه قـــــناع الحياء ، والمـــقنع المغطي رأسه ..وقنعه الشيب إذا علاه [1].

غير أننا في لغتنا العصرية لا ينظر إلى المعاني الحسية للقناع ، بقدر ما يذهب العقل إلى المعنى المجازي ، أو الرمز ،ليدل على من يخفي حقيقة شخصيته ، أو مشاعره، أو أفكاره ، ويظهر غيرها أو نقيضها ، فكأنما وضع المقنع على وجهه قناعاً ، ورسم من خلال هذا القناع صورة أخرى وبهذا المفهـــوم (الرمـــزي) أو الإيحائي ،يستطيع الشاعرأن يتعرف على أنواع مختلفة من الأقنعة.

---

(١) يراجع : لسان العرب ، لابن منظور ، مادة قنـــع ، ٨/ ٣٠٠،٣٠١، دار صـــادر بيـــروت بـــدون ت .

أما مفهوم القناع في النقد الأدبي المعاصر:

فقد يكون الشاعر عبد الوهاب البياتي هو أول من استخدم مصطلح القناع بعد معايشته لهذه الظاهرة في إبداعاته الشعرية ، حيث يرى أن القناع اسم يتحدث من خلاله الشاعر نفسه متجردا عن ذاتيته ، من أجل خلق وجود مستقل عن ذاته لينأى بشعره عن التقليدية كالغنائية والرومانسية التي انخرط فيها الشعر العربي على فترات طويلة .. (١).

على حين يرى الدكتور إحسان عباس ، أن القناع هو: شخصية تاريخية ــ في الغالب ــ يُخفي الشاعر وراءها ذاته ؛ ليعبر عن موقف يريده ، أو ليُحاكِم عيوب المجتمع من خلالها ..كما يرى أن القناع لا يقتصر على الشعر وحده ولكنه يشمل المسرحية الشعرية والقصة القصيرة ، كما يشمل القناع الأشخاص والمدن .. (٢).

وهو في اصطلاح المسرحيين " وجه مستعار من ورق مقوى أو نسيج أوجلد أو غيره ، يُثبت على وجه الممثل ليخفى ملامحه الأساسية ، فيتخذ نمطا محددا وصفات ثابتة ، أو هو الشخصية التي تُظهر غير ما تضمر" (٣).

لهذا يرى بعض النقاد أن القناع " كان جزءا من الطقوس الدينية البدائية التي تهدف عن طريق السحر إلى مواجهة الطبيعة ، ثم استخدم في نوع من المسرحيات التي ازدهرت في بلاط الملوك والأمراء في إبان عصر النهضة

---

(١) يراجع : تجربتي الشعرية ، عبد الوهاب البياتي ص٣٧، في ديوانه ،ط دار العودة ، بيروت ، لبنان ،١٩٧٣م.

(٢) يراجع : اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، د. إحسان عباس ، ص١٢١، سلسلة عالم المعرفة،الكويت ،عدد٢ ، ١٩٧٨م.

(٣) معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية ، د.إبراهيم حمودة ، ص٢١٣، ط دار الشعب القاهرة ، ١٩٧١م.

بأوربا، حيث كانت الشخصية المسرحية تتقنع وتتنكر وتشترك في موكب رمزي ، وهي تنشد الأغاني أو تلقي الخطب " [١].

هذا وقد لجأ الشعراء في العصر الحديث إلى استخدام هذه الوسيلة الفنية للتعبير عن تجاربهم بطريقة غير مباشرة ، وقد كان نتيجة لتأثر كثير من الشعراء بالحداثة ، وللتخفيف من حدة الغنائية والمباشرة في الشعر ، وهكذا يتلامس صوتان في القصيدة : صوت الشاعر ، من خلال صوت الشخصية أو القناع الذي يعبر به [٢].

ويُبرهن الدكتور جابر عصفور على استخدام الشاعر المعاصر لهذه التقنية قائلا : " إن القناع رمز يتخذه الشاعر العربي المعاصر ليضفي على صوته نبرة موضوعية ، شبه محايدة ، تنأى عن التدفق المباشر للذات ، ولكن بما يشف عن رؤية عالم محددة ، وبما لا يخفي المنظور الذي تُحدد به هذه الرؤية موقف الشاعر من عصره [٣].

ونخلص مما سبق إلى أن القناع تكنيك فني لجأ إليه الشاعر العربي ، في تشكيل بعض معالم تجربته الشعرية ليعطي حضورا وتواصلا للمتلقي من خلال هذه التقنية بدلالات متنوعة .

---

(١) معجم مصطلحات الأدب ، مجدي وهبة ، كامل المهندس ، ص٣٠٤، ط بيروت ، لبنان، ١٩٧٤م.

(٢) مجلة الموقف الأدبي ، مقال بعنوان (قصيدة القناع في الشعر السوري المعاصر)، د. محمد عزام، ص٨١، اتحاد الكتاب العرب ، عدد٤١٢، ٢٠٠٥م.

(٣) رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر ، د. جابر عصفور ، ص٢٣٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢٠١٢م.

ومن ثم أصبح القناع " يشكل تقنية درامية جديدة في الشعر الحديث ؛ لأنها تمنح الشاعر فضاءات نصية أكثر اتساعا لطرح الرؤى الفنية التي يمتلكها دون أن يكون ذلك بطريقة مباشرة" (١).

*** العلاقة بين القناع والرمز** :

القناع في أصله رمز يتخذه الشاعر المعاصر ؛ ليضفي على صوته نبرة شبه موضوعية ، وشبه محايدة ، تنأي به عن المباشرة ، فالرمز بالنسبة للقناع كالرأس بالنسبة للجسد ، فبدون الرأس لا قيمة للجسد ، وبدون الجسد لا فائدة من الرأس ، فكليهما يكمل بعضهما الآخر ، فالرمز هو الصوت الذي يتحرك به لسان الشاعر صارخا بقضاياه وهمومه(٢).

*** الوعي لدى الشاعر وعلاقته بالقناع** :

يرى بعض النقاد " أن الوعي بالمستقبل في الشعر العربي المعاصر يتحقق عن طريق استخدام القناع .. وقد كُثر استخدامه لدى الشعراء المعاصرين بطريقة لافتة للنظر ، ولم يكد يترك شخصية عربية أو أجنبية ، تاريخية أو إبداعية إلا وتم استدعاؤها للتعبير من خلالها عن أزمة الشاعر ، أو كشفه لمواطن الزيف، أو التحذير من شئ يمكن أن يقع أو التنبؤ بمستقبل إلى غير ذلك ، من رؤى وأفكار ، وعواطف ، وأحاسيس يبثها الشاعر عبر أقنعته ..ولعل الحلاج في شعر أدونيس مثلا ، يقودنا من حيث الظاهر إلى الماضي ، ولكنه يقودنا في حقيقة الأمر إلى الحاضر ، ومع ذلك .

---

(١) النص والقناع (قراءات في قصيدة النثر) ، د. أحمد الصغير ، ص١٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢٠١٧م.

(٢) يراجع مفارقة الرمز والقناع في شعر محمد سليمان ، د. ديانا حسني النجار ، ص١١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢٠١٨م.

فهو يقودنا إلى المستقبل ــ أي أنه من خلال عودته إلى الماضي يعمل على تعميق إدراكنا بالحاضر ، وعندما يتجاوب الإدراكان الحاضر والماضي يتولد إدراك المستقبل.." (١).

والكشف عن المستقبل " هنا ليس بمعناه الشائع المباشر الذي يدخل ضمن مجال التنبؤ بالغيب ؛ لأن التنبؤ بالغيب مسألة شائكة " فلا يعلم الغيب إلا الله " بل بمفهومه الأعمق المتصل بالكشف عن سوءات الحاضر بُغية تمهيد الطريق أمام القوافل الزاحفة نحو المستقبل" (٢).

إذن القناع يؤدي دوراً هاماً في إبداع الشاعر ، حيث إن النص بما يحويه من قناع يكون قادرا على الإيحاء وخلق المعادل الموضوعي لتجربة الشاعر .

(١) تحديث الشعر العربي ، (تأصيل وتطبيق) ، د. حامد أبو أحمد ، ص١٨٠، ١٨١، مكتبة الآداب ، ط١ ٢٠٠٨م.

(٢) السابق ، ص١٨١، ١٨٢.

الفصل الثاني

أنواع القناع ودلالاته في شعر الدكتور/ زهران جبر

مرت الشعرية العربية بالكثير من التحولات في العصر الحديث وصار النص الشعري يرتكز على معطيات في كتابة القصيدة ــ ربما يُفهم منها أنها تؤدي بشكل أو بآخر إلى الإبهام الدلالي من قِبل الذائقة العربية التقليدية المُدرَبة على الذوق العادي والمألوف ــ وبالتالي يتجه المتلقي إلى التصور والبعد عن قراءة النص الحداثي ، ولكن الواقع غير ذلك ؛ فبالإضافة إلى الشعر المألوف الذي حفظته الذاكرة العربية ، يمكن القول بأن الشاعر حينما يستخدم تقنية حديثة كالقناع وغيره ؛فإنه يريد أن يضئ إبداعه بجوانب تجعله يساير الواقع ،ولا يغفل عن تراثه ؛ ليتوازن فيه صوتا الحاضر والماضي ، كما أن في استخدام القناع،إغناءً للقصيدة العربية وتطويرها ، وتعمق الشاعرية وتكثيفها ، وإثراءً للنصوص وتعدد دلالاتها ، وبالتالي تعدد مستويات استقبالها .

وانطلاقًا مما سبق ؛ فإن بعض الباحثين[1] يرى أن تشكيل القناع في النص الشعري يُعد سبيلا يرتبط بالنزوع نحو الموضوعية واللاشخصية في الشعر ، والابتعاد عن الالتصاق بنزعة ذاتية غنائية .

وقد كثُر استعمال القناع في الشعر العربي الحديث ، وكان البياتي الشاعر العراقي هو " أكثر الشعراء لجوءا إلى هذه الوسيلة ....والقناع عنده يشمل أشخاصا كالـ (الحلاج . المعري . الخيام . طرفة . أبو فراس)، ويشمل المدن مثل (بابل،دمشق،غرناطة ...) ، كما استخدم أودونيس القناع بكثرة ، ومن أقنعته : مهيار الدمشقي (شخصية متخيلة) وصقر قريش ، ومن أقنعة محمد

(١) القناع الدرامي والشعر، فاضل تامر ، ص٧٧، مجلة الأقلام العراقية ، ١٩٨١م.

عفيفي مطر : عمر بن الخطاب ..وهكذا نجد الشعراء المعاصرين يتفننون في اتخاذ القناع ، للتعبير عن ذواتهم ، فعمر بن الخطاب يعبر عن الموقف من الجوع والإثم ، وصقر قريش يعبر عن التحول التاريخي ، ومهيار يعبر عن التحول متخطيا التاريخ ، والخيام يعبر عن الحيرة المستبدة تجاه الوجود وهكذا ..." (١).

وقد لجأ الشاعر الدكتور .زهران جبر إلى استخدام القناع في كثير من نصوصه ، لا من أجل العامل السياسي ، ولا خوفا من بعض القوى الاجتماعية التي يخالفها ، ولكن ــ من وجهة نظري ــ من أجل اتساع الرؤية الشعرية وتعميقها في نفس المتلقي،، وبعثقيم الذاكرة القومية والإنسانية ، وليسقط على الحاضر ما يواريه من صور الماضي .

هذا وقد تنوعت صور القناع لدى شاعرنا ، فتمثلت في القناع الشخصي التاريخي ،وغير التاريخي، والقناع التناصي الديني والأدبي والقناع الشيئي ،والقناع الفولكلوري ..ويوظفها الشاعر في أداء رسالة ربما يعجز التصريح المباشر عن أدائها .

أولاً:

أ ــ القناع من خلال استدعاء الشخصيات التراثية ،و يحاول الشاعر من خلاله أن يختفي خلف شخصية تاريخية ، لتكون معطياتها له معادلا موضوعيا لما يريد أن يُعبر عنه من أبعاد تجربته الشعرية ويستطيع من خلال هذا التقنع وراء الشخصية جذب انتباه المتلقي عن طريق حضور واستبطان مستمر.." (٢).

---

(١) اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، د. إحسان عباس ، ص١٢١،١٢٢.

(٢) قصيدة القناع في الشعر العربي الحديث ، د. عبد الحميد بدران ، مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر بالمنصورة ، ج١/٦٥٢،٦٥٥، عدد ٢٨. ٢٠٠٩م.

وقد استلهم الشاعر.زهران جبر،الشخصية التراثية في شعره وجعلها قناعا له، لتعطي له معادلا موضوعيا لأفكاره ومشاعره .

وعن طريق توظيف التراث ، يستطيع الشاعر وصل تجربته بمعين لا ينضب من القدرة على الإيحاء والتأثير ، ويفسح الشاعر المجال للأصوات التي تتجاوب معه [١].

ومن صور القناع عبر توظيف الشخصية التاريخية في شعر الدكتور.زهران جبر، قوله في قصيدته (الشراع التائه) [٢]:

دَعْ عنك ليلى وما غنَّي بـه قـيسُ واسكب من الدمع ما ينعي به الحسُ
فما زماني بمجـد الطُهـر مـؤنتس لـذا فقلبـي مـن التبـريح ينـبس
حتى القصيدُ وكان الحـرف يألفـه عاداه هَجـرًا كمـن يختالـه يـأسُ

إلي قوله :

أيام خيلي منها الصـافناتُ ضُـحًى تطوي الفجاجَ ومجنونُ بهـا عـبسُ

حيث استدعى الشاعر (ليلى) ومجنونها (قيس بن الملوح) ، وجعل من قصة الحب بينهما التي استمرت زمنا طويلا وانتهت بالضياع ولم يظفر كل واحد منهما بحاجته (قناعا) ومعادلا موضوعيا لإسقاطه على تجربتـه وهـي الاغتـراب ، ومجافاة الزمان له ولقصائده .. [٣]. والشاعر بهذا القناع يولد في نفس المتلقـي إحساسا أليما بافتقار قيم عصرنا إلى النبل والنقاء.

---

(١) يراجع : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د. علي عشري زايـد ، ص٧، دار الفكر العربي ، ١٩٩٧م.

(٢) ديوان قبض الريح ، د.زهران محمد جبر، ص١٤٦.مكتبة الآداب ،ط١، ٢٠١٢م.

(٣) يراجع : ديوان مجنون ليلى ، شرح عبد المعتال الصعيدي ، ص٣ــ١١. مكتبة القـاهرة، بدون .ت.

ثم تأتي الدفقة الشعرية في قصيدته (من عنترة إلى .....) قناعا شخصيا تاريخيا قائلا [١]:

يا عبلُ من خدشوا حياءك إنما حسبوا ابن عبسَ في قبورالثُّوم
ما تَّدعون لمصرَ ليس بوارد أبدا ًوليس سوى افتراء مزمم ِ

وبداية من العنوان (من عنترة إلى ...) الذي يعد من " أهم العتبات الدلالية التي توجه القارئ إلى استكناه مضامين النصوص وتفكيك شفراتها واستقراء محمولاتها الدلالية ، يعطيه من انطباع أولي عن المحتوى وبما يمارسه من غواية وإغراء للمتلقي ، فهو أول مثير سيميائي في النص من حيث إنه يتمركز في أعلاه ، ويبث خيوطه وإشعاعاته في النص " [٢].

فإن الشاعر زهران جبر ، تقنع وراء عنترة من العنوان الذي يحيل القارئ إلى دلالات متعددة من خلال قناع عنترة ، حيث كانت بعض مساوئ الواقع دافعا قويا للشاعر المعاصر ، كي يستدعي المقابل البراق في نظره وهو الماضي التليد، الذي تمركز في هذا السياق عبر شخصية " عنترة " ، وكان " الدافع وراء التقنع بهذه الشخصية هو الحيرة والألم الذي جمع بين رصد مقابح الواقع والحنين إلى الماضي المجيد حول شخصية الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد ــ وأن هذه الشخصية عُرِفت في جانب كبير منها بوصفها نموذجا تجسد فيه معنى السمو بالذات رغم كثرة العراقيل ؛ ومن ثمَّ كان مثالا للماضي المجيد المقابل للواقع الذي

(١) حصاد الوهم ، د. زهران محمد جبر ، ص٦٣،٦٤ مكتبة مصر ، ط١، ٢٠١١م.

(٢) التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر ، د. عصام حفظ الله واصل ، ص٣٧، دار غيداء للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١، ٢٠١١م.

اضطربت فـــيه الذات العربية رغم كثرة دوافع الإجادة " [١].

وشاعرنا يجسد الواقع من خلال قناع عنترة البطل .. للمحافظة على الوطن ، فيستنهض الهمم من أجل نهضته والعمل على تقدمه ــ رغم كيد الأعداءــ مــن خلال استدعاء شخصية عنترة في عتبة النص عموديا ، ومناداة عبلة في النص ذاته أفقياً ..

حيث " قام الشاعر بتوظيف لشخصية عنترة من خلال القناع عبر رؤية عكسية تطورية ، حيث تراه ضعيفا مهزوما في الحاضر ــ فإنه يشــتاق بشــدة إلــى الصورة المجيدة الماضوية منه ، حيث يعبر عن الاشتياق بصيغة طلبية موجهــة إلى شخصية ملازمة للشاعر القديم ، محبوبته عبلة "[٢].

ومن خلال قناع عنترة وعبلة ،يقف المتلقي مشدودا حيــال الــدلالات التــي يكتنفها نص الشاعر ، والقراءات المتعددة الي يحملها هذا النص بما يعطــي لــه حضورا وتكثيفا .

وفي قصيدته (عنترة ٢) يصور الشاعر واقع الأمة العربية وما وصلت إليه من اضطراب ... فيشحذ قصيده وهمته لإدراك ما يمكن إدراكه من خلال القنــاع وتوظيفه لشخصية عنترة وعبلة .قائلاً [٣]:

كفكف دموعك وانتفض يــا عنتــرة ... واضرب بسيفك كي تصون الجوهره

أدرك ســـريعا دار عبلـــة إنهـــا ... كادت تحــول لابــن عمــك مقبــره

أشــلاء قومــك للكواســير نهبــة ... أودت بهــم نحــو المهالــك منظــره

---

(١) جدلية التراث والشعر (استلهام الشاعر القديم في القصيدة المعاصرة) ،د. إكرامي فتحي حسين ، ص٢٥، مكتبة الآداب ، ط١، ٢٠١٦م.

(٢) السابق والصفحة.

(٣) ديوان حصاد الوهم ، د.زهران محمد جبر، ص٦٦.

أسرج جوادك وآتنا لا وقت واطـــ لق من ســهامك فــالأمور محيــره
وانشر ضجيجا في الفضاء الرحب ير عب من صهيل الرمح يزعق زمجره

حيث يعرض الشاعر موقفه من واقع أمته ، ويتخذ من قناع عنترة شخصــا يحادثه ويخاطبه بأن ينقذ عبلة (قناعا للوطن أو للأمة العربية جمعاء) ، وأن هذه الشخصية (عنترة) قادرة على حمل أبعاد تجربته الأليمــة ، وبكــل مــا تحملــه الشخصية المتقنع بها الشاعر ، فإنه يختفي وراءها ، مستنجدا بها مــن خــلال الدفقة الخطابية في قوله : (كفكف / انتفض / اضرب / أدرك / أسرج / أطلــق/ انشُر) ، فهو خطاب للجنود المُخلصين البواسل من أبناء الأمة الساهرين للــدفاع عنها ، ولبيان أن العويل والبكاء من قِبل البعض ، لا ينفع مع أعــدائها ، وهنــا تظهر رسالية الشاعرية من خلال القناع ، وليس المقصود (عنترة) بذاته ؛ إنمــا المقصود الرجوع إلى صفات عنترة التراثي التاريخي ،وكيف دافع عــن هويتــه وقضيته ــ رغم العراقيل التي وقفت أمامه ــ حتى انتصر .

ومن صور القناع الشخصي التاريخي أيضا في شعر الدكتور . زهــران جبــر، قوله في قصيدته (واعُمَراه) ، حيث يتجلى القناع في صور مكثفة قائلاً [1]:

سُــعارُ الحــرب يُنــذرُ بالنَّـــعيِّ ويُـــذهلُ هولـــه لُـــب الـــذكيّ

.....

ألا يـــا أمَّـــة الإســـلام إنّـــا نُجابـــة هجمـــة الشـــرس البغـــيّ
أتي الأحزابُ مــن أممٍ تــداعت وأبرهـــــة بجنـــــد عبشـــــميِّ
أخي انهض وسل عنــه (حُنينًــا) أو الصمصـــام فـــي يُمنـــى علـــي
أو المســـلول واليرمـــوك تُنبـــي أو الفـــاروق يصـــرع فـــي الغـــوي

(١) ديوان قبض الريح ، د.زهران محمد جبر، ص٥٢ــ ٥٥.

ويَضـــرب فـــي عدالتـــه مثـــالا فيـــا عُمَـــراه للعصـــر الـــدَّعِيّ

.....

وذو النـــورين والصـــدِّيق لمَّـــا أعـــدَّا الجـــيش بالمـــال الســـخيّ

أقـــام كلاهمـــا شـــرفاً ومجـــداً عُرا الإســـلام فـــي العهـــد الســـني

أو استنبئ صلاح ًالـــدين يحمـــي يعيـــد القـــدس مـــن يـــدي الشـــقي

حيث استدعى الشاعر. زهران جبر قناع عمر بن الخطاب في التاريخ الإسلامي بداية من عنوان القصيدة (واعمراه) وهو العتبة التي تذكرنا بالمرأة المسلمة في عهد الخليفة العباسي المعتصم ، حينما اعتدى جماعة من الروم على هذه المرأة ، فانطلقت بقولها وامعتصماه ، فجهز المعتصم جيشا قويا منتقمـــا لهـــذه المـــرأة المسلمة ورافعا لعزة الإسلام والمسلمين ،وما أشبه الليلة بالبارحة ؟!. حيث أراد شاعرنا أن يجعل من العنوان مفتاحا للنص ، فمن خلاله تفـــتح أبـــواب الـــنص المُغلقة ، كما أن العنوان هنا يحمل للمتلقي قيماً تاريخية لا حدود لها من الدلالات وفق رؤية الشاعر والمتلقي.

كما يكشف الشاعر عن وعي كبير بمستقبل الأمـــة فـــي مواصـــلة الحفـــاظ على حضارتها ..من خلال الأقنعة التاريخية أماكن وأشخاصـــا والمتمثلـــة فـــي : (الأحزاب / أبرهة / حنُين / علي ّ/ المسلول / اليرموك / الفاروق / ذو النورين/ الصديق / صلاح الدين / القدس) ، حيث أرى أن الشاعر جعل مـــن وراء هـــذه المسميات التاريخية معجما مُكثفا من الدلالات لكل مسمى تاريخي .

كما يكشف " الشاعر من خلال هذه الأقنعة المتعـــددة ، عـــن رؤيـــة الأعـــداء المُخربين المعادين للوطن ، رابطا بين عدوان الآخر قديما وحـــديثا فـــي مســـلك إبداعي ، يقرر الوعي بتاريخ الأمة في صراعها مـــع خصـــومها مـــن ناحيـــة ، ويكشف من ناحية أخرى عن وعي بحقيقة الصراع ، وأنها عقدية بالمقام الأول ،

ويقرر من ناحية ثالثة أنَّا أمة غير متعدية ؛ بل مدافعة عن قضاياها "[١] كما يوضح " الشاعر من خلال أقنعته التشخيصية التاريخية عما ينبغي أن نستعيده من تاريخ الإسلام وهي الصفحات الناصعات المليئة بالعدل والكرامة والظفر و الانتصار، فتتعدد بالسياق الواحد أسماء أعلام الحضارة الإسلامية وأيام فخرها ، مستلهما أو محاولا استلهام نهجهم" [٢].

ومن صور القناع الشخصي الذي اتكأ عليه الشاعر زهران جبر ، قوله في قصيدته (هند التي) [٣]:

كانت من الوَشْي المُنمنم ترتدي ... حُرَّ الحرير مع الوشَاح وتغتدي
في مهرجَانات الجمال تبوأت ... عرش الجمال بحُسنها المُتفردِ
حورية ٌ من بنت عدْنٍ لم تنزل ... تختالُ تيهًا في بهاء أوحد
في زحمة التاريخ ما فتئت تط ... ـل بوسمها معشوقة المتودد
هند التي في قصرها شربت كئو ... سَ العز متـرفة ولم تُستبعد

إلي قوله :

يا هند لوعة عمرك الملتاع وشـ ... ـم في جبينك كالأسار الملحد
سيري على الطرقات كالبلهاء شا ... ردة برثٍّ إهابك المتقدد
بعد اتشاح التِّبر والشال المُعطـ ... ـر والطنافس وافتراش زُمردِ
قولي لنا يا هندُ رُبَّ خيانة ... عصفت بْروحك من فتى متبلدِ

(١) رسالية الشعر وتداعيتها في قبض الريح ، للمبدع " زهران جبر " مقال مخطوط تحت يد الباحث ، للدكتور. مصطفى أبوطاحون ، ص٨..

(٢) من أبعاد الرؤية والتشكيل في شعر د.زهران محمد جبر، د. مصطفى أبو طاحون ، ص٧٩.

(٣) ديوان قبض الريح ،د.زهران محمد جبر، ص١٣١،١٣٢.

حَنقٍ يبيعُكِ كيف شـــاء ولا حيـــا ة لمن تنادي في البريـــة فاصـــمدي

فلفظة (هند) في النص السابق، تُشكل مناورة قوية لدى الشاعر والمتلقـــي ، وتحمل أيضا ثنائية في الخطاب الشعري لدى المتلقي من خلال الدلالات والإنتاجية التي تحملها كلمة هند ، فهل هي هند / الإنسان المحبوبة التي تُشبه هـــنْدَ بنت عتبة زوج أبي سفيان الشاعرة القوية التي تتصف بالشاعرية والفروسية والجمال وليست كغيرها من الهندات فهي ذات أصول عربية متجذرة في التاريخ ، أو هي هند / المكان / القناع الذي ارتداه النص ، ليكشف عن أصـــالة ومعـــدن مصـــر العزيزة التي تتوشح بالجمال والجلال والعز، فأتت عليها في مرحلة من مراحـــل حياتها يد المكر من أمثال المُخربين، حتى أرادوا القضاء على الأخضر واليـــابس ونزعْ منها كل ما هو جميل وعزيز ..حتى تصبح كالمرأة البلهاء لا تـــدري أيـــن مصيرها ؟!.فالشاعر يؤكد دوام المحافظة على هذه الجميلة هند التي تغير حالهـــا وجمالها في وقت ما.. ، وعن طريق أداة اللغة (القنـــاع) هنـــد جسَّـــد الشـــاعر خطابه ..والقناع يوحي بما يختلج في صدر الشاعر من قلق وتوتر وخوف ..

كما أجاد الشاعر زهران جبر من خلال القناع الشخصـــي التـــاريخي، حينمـــا يتحدث عن تصوير الجحود وإنكار الجميل في قصيدة رائعة عنوانها (يا مصر) ، فيرى أن مصر المعطاءة السخية هي شدو أغنية وهي حلوة يشـــدو بهـــا الـــوتر وكانت كما يقول في قصيدته (يا مصر) [1]:

يا مصرُ ما كنتِ إلا شَـــدو أغْنيـــة ترنيمةً حلوة يشـــدو بهـــا الـــوترُ

قيثارةً في يدي رمسيس يعزفهـــا عدنيةَ الشجو يَهْوِي نحوك البشـــرُ

.....

(١) قبض الريح ، د. زهران جبر ، ص١٣٦ــ ١٣٧.

يا مصر ذكرُك في القرآن مكرُمــةٌ قد مجدتْ وسْمَك الآياتُ والصــورُ

فمن الذين كافأوها بالعقوق؟إنهم بعض أبنائها الذين لم يدركوا مكانتها [1]:

عاشت غطاءً بعز البــرد تُــدفئُهم وفي الحرور نســيماً نبْعُــه السَّــحرُ

ودلَّلــتْهم صــغارا فــوق راحتهــا وأرضــعتهم لبــان العــز يُعتصــرُ

وما هو الجزاء والمكافأة من البعض غير المخلص؟

لكنها بعد كدِّ العُمــر مــا حصــدتْ غير الهوان ويعلــو وجههــا الكــدرُ

تحوصل الجبن في أعمــاق أوردة فجدَّ في النهــب مــن أبنائهــا زمــرُ

واستنزفوها ولجــو فــي نكايتهــا واستنْكروها وفضــل الأم مــا نكــروا

فاستعارة لفظة (رمسيس) تُعد قناعاً تاريخيــا لأحــد الشخصــيات المصــرية التراثية قبل الميلاد، وأن مصر منذ القِدم تزدهر بالخيرات والنعم والحضارات التي سمت على الدنيا كلها،وهوي إليها الجميع.. وشاعرنا من خلال القنــاع ، يلفــت المتلقي إلى الربط بين الماضي التليد لتاريخ مصر... وبين حاضرها ...

ب ــ وهناك صورة أخرى للقناع الشخصي لدى الشاعر ، وهو لــيس تاريخيــا ، يلحظه المتلقي من خلال ذكر أعلام مؤنثة في ثنايا قصائده ، وهل هذا يُعد غــزلا حقيقا أو هو قناع ارتداه الشاعر غزلا وحُبا في وطنه " مصر " ، حيث نراه يقول في قصيدته (عزة) [2] :

نحــبُ عــزةَ حُبــا لا يُكابــده إلا المُتــيم غــلَّ القلــب والكبــدا

في عشق أحلى بنات الأرض قاطبة لكن عــزة لــم تشــعر بنــا أبــدا

(١) قبض الريح ، د. زهران جبر ، ص١٣٦ــ ١٣٧.وينظر: تأملات في شعر د. زهران جبر، ص٧،٨..

(٢) ديوان حصاد الوهم ، د.زهران محمد جبر، ص٨٩.

.....

أسفي عليها ولا دامت بحالتها حتى تعود كما كانت لنا سندا

وقوله في قصيدته (عزة ٢) [١]:

في حب عزة كل الناس ما اختلفوا الجن والإنس والأفلاك تأتلف

يدرون عزة إن ألقت عباءتها وأسفرت عن نفسها الأكوان تغترف

من حسنها وجمال الوجه يسبقها نورا تلألأ لا من مثلها عرفوا

هذا عطاء من الوهاب ليس له فيما تشابه قد عزت به النطف

فهل عندما يستخدم الشاعر التعدد (عزة) و(عزة ٢) قناعا شخصيا يبعد عن نفسه الغزل الحقيقي ، مع العلم أنه في المقطوعتين كلتيهما أبرز جمال ملامحها : فهو يصور علاقته بها متيما بأحلى بنات الأرض ،ولذلك فهي تتدلل ، حتى إنها لم تشعربه ، لكن مفاتن جسدها الجميلة قد أوهاها كيد العدو ، مما جعله يخاف عليها ويدعو لها أن تصبح سندا له دائما !... هذا في المقطوعة الأولى لكن هذا التفرد أصبح مشاعا في المقطوعة الثانية ، فالجميع يحبونها : الجن والأنس والأفلاك ، وعندما تلقي عباءتها فالأكوان تغترف من حسنها وجمال وجهها ،ولم يعرف ذلك من مثلها ، ومن ثم فهو هبة الله لها...هذا التفرد وهذا الشيوع إن كان لعزة المدعاة ، فهو لا يصلح إلا لمصر ، لكن العلاقة بين الرمز والمرموز إليه كان يجب أن تكون أكثر اتصالا وتجسيدا ،وإذا كان العدو في المقطوعة الأولى من هاتين المقطوعتين قد قيدها وأوهى مفاتنها ، فإن جمالها الذي كان هبة من الله لها يجعل الرمز (القناع / عزة الإنسان) يتجاوز عزة الإنسان ليجسد المرموز

(١) ديوان حصاد الوهم ، د.زهران محمد جبر، ص٩٠.

(عزة المكان / الوطن) ليتمثل في مصرنا الحبيبة التي تحتاج إلى دوام المحافظة عليها ،والرعاية والإخلاص لها .. [١].

وهكذا شكَّل القناع الشخصي التاريخي وغير التاريخي ، جانباً كبيراً في تجربة الشاعر ، متأثرا بالتراث التاريخي في أكثره ، موظفا إياه في مناقشة قضايا وطنه وأمته العربية والإسلامية ، موجها من خلال هذا التكنيك الفني إلى بناء واقعٍ جديدٍ يتصل بالأمس، وينهض باليوم، لُيحقق لمصر ولأمتنا الأمل والرقي في الغد .

ثانياً ـ القناع التناصي الديني والأدبي :

أ ـ القناع التناصي الديني :

والتناص سمة كل نص أدبي جيد، وهو " في الواقع الصياغة البراقة للسرقات الأدبية المقننة ، والتي عرفها عبد القاهر الجرجاني بـ(الاحتذاء) ...الاحتذاء في المعاني وفي الألفاظ ، بل حتى في التراكيب والصور" [٢].

ويعني بصورة أوضح تفاعل النصوص مع نصوص أخرى واستحضارها وتضمينها في النص عن طريق الاستشهاد أو الإلماح أو الاحتذاء [٣].

والقناع التناصي كظاهرة لا تقصد لذاتها ؛ وإنما للدلالات الجديدة المتولدة عن هذا القناع متناصا .

---

(١) يراجع : قراءة في ديوان " حصاد الوهم " للشاعرد. زهران جبر ، مقال مخطوط تحت يد الباحث ، للدكتور. سعد أبو الرضا ، ص٥.

(٢) معلقة امرئ القيس وأثرها في الشعر العربي ، مقال للدكتور . عبد الحميد محمد بدران ، ص٢٢٠،٢٢١. مجلة العرب ، ج٣،٤، السنة الخمسون ،أغسطس ٢٠١٤م.

(٣) ينظر: التفاعل النصي (التناصية النظرية والمنهج) ، نهلة فيصل الأحمد ، ص٢٦٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط ١، ٢٠٠١م.

وهذا هو قانون التأثر والتأثير ، والشاعر الدكتور. زهران جبر ، اتكأ على أقنعة تناصية دينية من خلال إشاراته إلى مضامين قرآنية أو إشارات نبوية تعطي قناعا تناصيا دينيا يُشكل من خلاله إثراء التجربة وتجويدها ، ولكي يوضح لنا أصالة شعره بانتمائه إلى هذا الموروث الديني .

ومن صور القناع التناصي الديني،قوله في قصيدته (عجب) [١]:

ويُصغِي إلى جنٍّ تحلَّق حوله ... وكُلُ الذي تتلو الشياطين أبّدا

فمن وحي هاروت المؤثَّم فعلُه ... يصير لإبليس اللعين مُجنَّدا

بدتْ هذه الدنيا بعينيه كُوةً ... وأضيق من سَمَّ الخياط وأرْمَدا

حيث يتكئ الشاعر على قناع تناصي ديني في قوله : (تتلو.الشياطين) ، وقوله : (هاروت) وقوله :(وأضيق من سم الخياط) ، حيث العجب والشكوى والنفور من النفاق وأهله والرياء، وما يترتب على ذلك من أمور تؤدى إلى الشعور باليأس والإحباط .. حتى أصبح المخرج منه أمرا مستحيلا في إشارة إلى قوله تعالي : (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) [٢].

وقوله تعالى : (وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) [٣].

(١) قبض الريح ، ص٣٧.

(٢) سورة البقرة ، آية (١٠٢).

(٣) سورة الأعراف ، آية (٤٠).

فالرمز/ القناع ← آلة الشر/ الشياطين ←والمرموز النفاق/ الكذب. والرمز/ القناع ←الكوة /سم الخياط /الضيق ← والمرموز / استحالة ترتب الفائدة من وراء النفاق وأهله .

ومن القناع التناصي الديني ، قوله في قصيدته (الفجر آت) [1]:

هيهات َهيهات َجُند الله ما غلبوا الفجرآت صلاح الدين يرتقبُ

أقسمتُ بالله أيمانا مغلظة لن يَبرأ الجرح ُإلا حين نحترب

.....

خلوا المكان لطفل قابضٍ حجرًا يرمي اليهود َوأنتم كالدُمىَ لُعب

رمْىَ الأبابيلِ من سجيلَ متقداً فيعصف الهام حتى يرجعَ النقب

فالنص يستدعي قناعا دينيا تناصيا ، وهو الإشارة إلى قوله تعالي : (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ) [2].

فالشاعر يحدوه النصر ويتفاءل بأن نصر الله قريب ، فيستدعي في إشارة موجزة من خلال القناع التناصي ، القصة القرآنية في سورة الفيل ، حينما أراد أبرهة الحبشي أن يهدم الكعبة ، ولم يستطع أحد المواجهة ، وقال عبد المطلب حينها أما الإبل فلي ، وأما البيت فله رب يحميه ..والشاعر يريد استحضار الحالة في ذهن المتلقي بأن للبيت (القدس وما حولها) ربًّا يحميه ، ثم يجعل من طفل الحجارة طيرا أبابيل ...، فالرمز القناع المتناص الأبابيل / الحيوان ...ثم الطير الأبابيل المرموز / أطفال الحجارة ...وما أجمله من قناع يشبة الزلزال في تحريك المتلقي والقارئ..وقد أسمعتَ لو ناديت حيا .

(١) قبض الريح ، ص١٠٤،١٠٥.

(٢) سورة الفيل ، آية (٣، ٤).

ومنه ، قوله في قصيدته (الشراع التائه) [١]:

أيام خيلي منها الصـــافناتُ ضـــحى تطوي الفجاجَ ومجنـــونُ بهـــا عـــبس

فالنص يرتدي قناعاً دينياً تناصياً ، يعرج عليه الشاعر ، في إعـــادة الحاضـــرة العربية إلى كيانها ووجودها ، فالصافنات رمز وقناع للفروسية والبطولة العربية ... إشارة إلى قوله تعالى : (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِـــيِّ الصَّـــافِنَاتُ الْجِيَـــادُ) [٢]. فالرمز/ القناع / الصافنات /الشجاعة ←والمرمـــوز/ القـــوة العربيـــة المالكـــة لصافنات متعددة وتستطيع تحريكها للدفاع عن قضاياها.

ومنه قصيدة للشاعر بعنوان (وما تخفي صدورهم أكبر) ، وهـــذا العنوان يعد مدخلا لبقية النص ...فالشاعر من خلال القصيدة عاش في غربة نفسية في وطنه في وقت من الأوقات ، حينما وجد المجتمع عاش مأزوما في مرحلة مـــا مُلئـــت بالاضطرابات .. بمختلف مجالاتها ؛ فأراد أن يضع قناعا تناصيا يكون معادلا لما أدركه مصورا حال المجتمع وتخبطه ــ آنذاك ــ من خـــلال تجربتـــه فـــي هـــذه القصيدة التي توضح خبث المُخربين ..من أعداء الوطن .

فالرمـــز/ القنـــاع / آلـــة إخفـــاء الغـــش والتـــدليس والتخريـــب.. وهـــي القلوب ← والمرمـــوز/ ما ينطـــوي عليـــه هذا الإخفـــاء مـــن دمـــار وخـــراب وتدليس ← للمكان /الوطن / المجتمع .

فالآية (العنوان) تحمل دلالات متولدة على طول الخط الأفقي للقصيدة ..حيث يقول الشاعر[٣]:

عامان قد مضيا وهذا الروض لم يثمـــر لـــه شـــجر فـــزاد محـــولا

(١) قبض الريح ، ص١٤٦.

(٢) سورة ص : آية ٣١.

(٣) حصاد الوهم ،د . زهران جبر ، ص٤٤ ، ٤٥.

.....

وطني قرين الخلد من يمكــر بــه سيعيش فــي درك الأســى مخــذولا

ليوضح ما تنطوي عليه قلوب الماكرين والمخربين من البشر ...

وهذا ما تضمنه .. قوله تعالي : (وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) [١].

ومن القناع التناصي الديني ، قوله في قصيدته (مناجاة) [٢]:

وألهتْ الأصنامُ فــي أرض يعــرُبٍ وأفكارها الحُبلــى بنسْــل الغوايــة

كثير بلا معنى عديــدٌ بــلا حجــى يضاهي غُثاء السيل في غيــر مِنعــة

ففي قوله : (يضاهي غثاء السيل في غير منعة)إشــارة إلــى أمــة الإســلام والعروبة ــ في وقت ما ــ ، فهي كثيرة العدد ، ولكنه العــدد المضطــرب.. فهــو كغثاء السيل ، وفيه إشارة إلــى الحديث النبوي الشريــف فــي قــول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (يوشك الأمم أن تداعي عليكم .. .. فقــال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكــنكم غثــاء كغثــاء السيل ...) [٣]:

فالرمــز/ القنــاع /غثــاء السيل / المطــر← المرمــوز/ العــدد الكثيــر / الضعيف .

(١) سورة آل عمران : آية ١١٨.

(٢) ديوان السراب ، د. زهران جبر ، ص٩. مكتبة الآداب ، ط١، ٢٠١٦م.

(٣) الحديث ..صحيح أخرجه أبو داود في سننه جـ٢/٢١٠.

ب ــ القناع التناصي الأدبي :

وفيه يستعين الشاعر ببعض الأبيات التراثية أو غير التراثية ..أو جزئية من أي نص أدبي .. قد تتفق مع موقفه أو تختلف معه ..فيثري بذلك تجربته ويضفي من خلال ذلك بُعدا جديدا عليها(١).

وأيضًا لا يقصد هذا القناع التناصي الأدبي لذاته ؛ وإنما ما يترتب عليه من دلالات خفية وراءه .

والأمثلة على ذلك كثيرة في شعر الدكتور. زهران جبر ...ومنه قوله في قصيدته (يا سيد العرب (٢)):

(السيفُ أصدق أنباءً من الكتب) فاقطعْ رقاب العَدا يا سيَّد العَربِ

لا مثلُ مثلك في الأعراب قاطبةً يا مَعقدَ العزِّ قوض واهم الصَّخب

أقدِم إلى النصر نَصر الله قاطبة قاوم بنا الزَّيف من شِعْبا إلى النقب

لا بل فقدنا إلى العلياء يا حسنًا (٣) وامْحُ القبيح َمن الدنيا بصبر نبي

فالشاعر استطاع أن يتقمص ــ من خلال القناع التناصي الأدبي ــ جزءا من مضمون مطلع بائية أبي تمام الشاعر العباسي وملامحها الأسلوبية ، ليوحي بالمتلقي إلى توظيفها في الواقع دلاليا ...حيث إن الكلام الكاذب لم يعد ينفع المخلصين من أبناء الأمة ..كما حدث في العصر العباسي ..حينما كثر المنجمون وقالوا للخليفة العباسي المعتصم ــ حين أراد أن يلبي استغاثة امرأة مسلمة

---

(١) يراجع : المفارقة والقناع في الشعر العربي المعاصر ، د.مروة محمود الشرقاوي ، ص١٩٣، دار النابغة للنشر والتوزيع ، طنطا ، ط١، ٢٠١٥م .

(٢) قبض الريح ، د. زهران جبر ، ص٩٦.

(٣) و(حسنًا) هنا في النص المقصود به حسن نصر الله في مقاومته للعدو الصهيوني ، أبان الحرب على لبنان ، فهب مدافعا عن حزبه وأذاق العدو الويلات من القتل والدمار.

اعُتدي عليها من قِبل الروم ..فقالت:(وامعتصماه) ــ: إن الكُتب والأبراج الفلكية تقول لن تنتصر على الروم في شهر كذا وكذا ...فلم يستمع إلى كذبهم وتهويلهم ..فجهز جيشا وانتصر على الروم انتصارا مؤزرا ..وكان أبو تمام الشاعر العباسي جنديا في المعركة فصوَّر النصر أيما تصوير قائلاً [1]:

السيفُ أصدق أنباءً من الكتب في حدِّ الحدُ بين الجدَّ واللعب
بيضُ الصفائِح لا سودُ الصحائف في متونهن جلاءُ الشك والريِّب

فالرمز/ القناع / سيف المعتصم / السيف ..رمز البطولة والعزة على امتداد الزمان في لغة العرب ←المرموز/ سيف الحاضرة العربية القوي الذي يستطيع أن يقهر أي عدو ...غير أنه في غمده ...ولم يحن وقت خروجه .

والرمز / القناع/ الكُتب ..المنجمون والسحرة في زمان المعتصم (العصر العباسي) المتقاعسون ←المرموز / الأعدء من أبناء الأمة ..

ومنه أيضا ، قوله في قصيدته (من عنترة إلى ....) [2]:

هل غادر الشعراء من مُتردَّم وبكوا على مصر الكنانة بالدم
لما رأوا طلا تُحال ودِمنة أعشاشُ بوم والغراب الحوم ِ

....

أو أودع السيف المصلصل غمده ما عاد يسمع ويك عنتر أقدم
إنا بنو الإسلام لو جربتم مُر مذاقتنا كطعم العلقم

(١) ينظر : ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ١/ ٣٥ــ٧٤. دار المعارف . بدون .ت.
(٢) حصاد الوهم ، د. زهران جبر ، ص٦٣.

حيث لا يزال المتلقي يحس أنفاس شعرائنا القدامى في هذه الدفقة الشعرية وهذا المطلع الدلالي من خلال تقمص ألفاظ الشاعر العربي الجاهلي ..من خلال القناع التناصي لأجزاء متعددة من معلقة عنترة التي يقول فيها [١]:

هل غادر الشعر من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

....

حييت من طلل تقادم عهده .... أقوى وأقفر بعد أم الهيثمِ

....

فإذا ظُلمت فإن ظُلمي باسل مُر مذاقته كطعم العلقم

....

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قِيلُ الفوارس : ويك عنتر أقدم

كما تقمص الشاعر من ألفاظ معلقة زهير بن أبي سلمى والتي يقول في مطلعها [٢]:

أمن أم أوفى دِمنة لم تكلَّم بحُومانة الدَّراج فالمُتثلّم

وفي ضوء هذا الامتصاص والتقمص لألفاظ كثير من الشعراء الجاهليين وإسقاطها كقناع يختفي وراء مدلوله الشاعر..فإن هذا يؤكد على احتذاء شاعرنا للتراث الشعري ، دون تبعية ، ودون جمود ..كما إنه يتبارى مع الموروث كما تبارى شعراء الإحياء من قبل ، من أمثال البارودي وأحمد شوقي ..وغيرهم[٣].

---

(١) شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، معلقة عنترة بن شداد ، ص١٩٣ : ٢١٥، ت. طه عبد الرؤوف سعد ، دار الحرم للتراث، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٦م.

(٢) شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، معلقة زهير بن أبي سلمى ، ص١١٣.

(٣) يراجع : الشاعر والتراث ، د. مدحت الجيار،صـ٢٧٣ــ ٢٧٨. الهئية المصرية العامة للكتاب ، ط١، ٢٠١٧م.

ومن خلال الامتصاص... فالرمز/ القناع / دار المحبوبة التي تحولت إلى أطلال ، ← المرموز / الوطن / السكن.

والرمز / القناع / الطلل المتحول إلى دمنة ← المرموز/ الخراب والدمار الذي قام به المخربون من أعداء الأم العربية ..

الرمز القناع / الاستغاثة بالأبطال ...ويك عنترة أقدم ←المرموز/ البطل العربي القوي المدافع عن أرضه ووطنه ..

والرمز/ القناع ..بسالته العربية المنيعة وظُلم العدو له خط أحمر ←المرموز/ البسالة العربية الحاضرة موجودة ...وتسطيع أن تتحرك للدفاع عن أرضها وقضاياها .

ومن خلال هذه الدفقة الشعرية وامتصاصها للتراث الشعري يُدرك المتلقي عميق الأسى لدى الشاعر وإلحاحه على أصوات التراث للوعي ، ولبعث القيم والهمم ..ونفض التراب والهوان الذي يُخيَّم ــ أحيانا ــ على الذات العربية الحاضرة .

ومن القناع التناصي الأدبي أيضا ، قوله في قصيدته (عنترة ٢) [١]:

تلك الرماح إلى الصدور تسابقت من لم يمت بالرمح يهلك غرغره

.....

اضرب بسيفك في رءوس اينعت رهنت ربوعك في كهوف السمسره

فقد تقنع شاعرنا وراء التراث الشعري ، والتراث النثري ..أما التراث الشعري فتمثل في قول الشاعر ابن نبُاتة السعدي [٢]:

---

(١) حصاد الوهم ، ص٦٦،٦٧.

(٢) ديوان ابن نُباتة السعدي، تحقيق ودراسة عبد الأمير مهدي حبيب الطائي ، ج١/ص٨٧، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، العراق ، ط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

وأما التراث النثري ، فتمثل في قول الحجاج بن يوسف الثقفي ، في خطبته في أهل العراق ...ومما جاء فيها " إني لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها " (١).

كما ينصص من أمثال العرب دون تقنع قولهم : قطعت جهيزة كل خطيب .. في الدلالة على الخبر ..يقطع حال الاضطراب ويحسم الأمر .في قصيدته (إلى الشاعر أحمد عبد الهادي) (٢): فقل يا آسر الألباب واصدحْ فشعرُك كرمةُ الزمن الجديب .

لُيصْغي عالمُ الشُعراء..حتى تُجيز (جهيزة) قول الخطيب

وينصص مع المقولة المشهورة لسيدنا عمربن الخطاب ، حين رآه أحد الناس يسأل عنه ، فوجده ينام تحت شجرة .... ؛ فتعجب وقال : حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر! حيث يقول في قصيدته (واعُمراه) (٣):

حكمت عدلت ثم أمنت خوفا فنمتَ وفزت بالقلب الرضي

ومن القناع التناصي الأدبي مع الشعر الحديث ، قوله في قصيدته (قبَّرة) (٤):

والسحب تركُض في الفضاء الرحب لا تخشى عُكار الغلِّ يفرضُ سيطره

فهو هنا متقنع وراء قول الشاعر إيليا أبي ماضي إذ يقول(٥):

---

(١) البيان والتبيين ، للجاحظ ، ج٢/ ٣٠٨، تحقيق . عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، بالقاهرة ، الشركة الدولية للطباعة والنشر ، ٢٠٠٣م.

(٢) قبض الريح ، ص٤١.

(٣) قبض الريح ، ص٥٥.

(٤) السراب ، د. زهران جبر ، ص١٣.

(٥) يراجع : من أبعاد الرؤية وآليات التشكيل ، د. صلا ح عدس ، ص٣٧.

والسحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين سلمى بماذا تحلمين

وقوله في قصيدته (تبحر في شراييني) [١]:

فكيف ولي في وصف ثغرك أبحرٌ من الشعر في أمواجه الدرُّ يُنثر

فهو هنا متقنع بقول الشاعر حافظ إبراهيم إذ يقول[٢]:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

ومن القناع التناصي الأدبي أيضا مع الشعر الحديث قوله في قصيدته ضياع [٣]:

أكاد أشك في نفسي لأني أكاد أشك فيما طال مدِّي

فهو متقنع بقول الشاعر الأميرعبد الله الفيصل[٤]:

أكاد أشك في نفسي لأني أكاد أشك فيك وأنت مني

ومن التناص غير المتقنع أيضا ، قوله في قصيدته (ليلة التكريم) [٥]:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض الغزال

فقد تنصص بالبيت كله مع المتنبي في رثائه لوالدة سيف الدولة .

ومن القناع التناصي الأدبي التاريخي قوله في هجاء إحدى المعلمات بتبوك في قصيدته (في تبوك) [٦]:

أقول وأنت أشأمُ من بسوسٍ وعطرُ المنْشمي على الرُّماة

---

(١) السراب ، ص١٥.

(٢) يراجع : من أبعاد الرؤية وآليات التشكيل ، د. صلا ح عدس ، ص٣٧.

(٣) السراب ، ص٢١.

(٤) يراجع : من أبعاد الرؤية وآليات التشكيل ، د. صلا ح عدس ، ص٣٧.

(٥) قبض الريح ، ص٤٨.

(٦) قبض الريح ، د. زهران جبر، ص٣٩.

الرمز / القناع ،الناقة بسوس التي كانت نذير شؤم وبسببها دارت رحى الحرب أكثر من أربعين سنة .. ← المرموز/ المعلمة ذات الخصال المنفرة ..غفر الله لها .

الرمز/ القناع / عطر المنشم / عطر شؤم ← المرموز/ النتائج الوخيمة المترتبة على أعمال قد تكون غير محمودة من نظر الشاعر صاحب التجربة ، وقد تماس الشاعر مع زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف قائلا [1]:

تداركتُما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وهكذا ظهر القناع التناصي عند الشاعر مرتبطا بالموروث الديني والشعر الجاهلي وغيره ...والشعر الحديث ، كما برز القناع التناصي عند الشاعر في النثر أيضا.... ومن الواضح أن القناع التناصي يمتص فيه الملفوظ السابق أو المزامن ، ويدفعه إلى نسيج الخطاب المعاصر مستمدا منه طاقة تكوينية طارئة ..ومستمدا منه وعيا إضافيا يشارك في إنتاج الدلالة [2].

ثالثا ـ القناع الشيئي (من خلال توظيف ظواهر الطبيعة):

وفيه يتقمص الشاعر خلف شئ ما ...محسوس أو ملموس .

وسأقف ـــ بإيجاز ـ مع (القناع الشيئي) من خلال عتبات الدواوين ؛ لأنها جديرة بالتحليل والوقوف عند مدلولاتها .

---

(١) شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، معلقة زهير بن أبي سلمى ، ص١١٩.

(٢) يراجع : هكذا تكلم النص (استنطاق الخطاب الشعري) لرفعت سلام ، د. محمد عبد المطلب ، ص١٥٠، سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ط ١٩٩٧م.

وأرى أن الشاعر الدكتور. زهران جبر من خلال لافتات دواوينه الأربعة .. جعل عناوين هذه الدواوين مُسميات لا يكاد المتلقي يحصل من دلالاتها إلا على الحيرة والمفارقات ...والمتناقضات ..ومن هنا يمكن القول من خلال تحليلي المتواضع لعتبات هذه الدواوين إن الشاعر وسم دواوينه بأسماء يقف وراءها المتلقي ليلتقط الدلالات والمعاني المتجددة كلما قُرأ الديوان قراءة جديدة وفي ضوء ظاهرة نقدية تختلف عن مثيلاتها .

ففي عتبة الديوان الأول (قبض الريح) ، تجد نفسك أمام لفظتين كلاهما مربك في التركيب ..فالأولى : قبض ..والقبض يستلزم الإمساك بزمام شئ ما ..فإذا أنت تفاجئ باللفظة الثانية الريح ..فتقول إن الشاعر يبالغ في عتبة هذا الديوان ..... وحينما تقرأ قصائد الديوان ، تجد نفسك أمام بحر من الأهوال ..ترجع ثانية؛ فتقول : إن الشاعر محق ..فيما ذهب إليه من سيميائية لهذا الديوان ....ولو عنون الشاعر الدكتور. زهران جبر ديوانه بـ (قبض الرياح)..وليس(قبض الريح)؛لكان في نظري أجدى ؛ لأنك تجد نفسك..أمام رياح عاتية ..أو كما قال في مقدمة ديوانه خربشات في وجه العصر.. ففيها تعيش الواقع المضطرب للأمة العربية والإسلامية ، وفيها تجد الروح الإسلامية ، وفيها ، تجد المتعة الفنية ، والجانب الإنساني بكل ما تعنيه الكلمة .

إذن : استطاع الشاعر أن يضع عتبة قوية لهذا الديوان ، يقف وراءها ... متقنعا ..يمتح " من اضطرابات الواقع ما يسعفه على إبداع عبقري القسمات ، صالح مصلح ..مرارات عدة يُحس بها المتلقي لقبض الريح ، وهي مرارات لها ما يبررها لدى المبدع ، فقد شعر بضياع الجهد ، وتلاشي الأثر ، حسب عتبة الديوان الرئيسة ، وذلك عبر جهاده طوال عمره ، وعبر موهبته الشعرية ،

ودفاعه عن العربية ، هذه كلها تلاشت أدراج الرياح ..وهو شعر رسالي يسهم في تشكيل الوعي ..والوعي في زمن الاضطراب يرهق صاحبه كثيرا " [١].

فالشاعر يقول [٢]:

سافرتُ أبحثُ فيك يا زمني أجو ... ب مدائنًّا ربما أصادف مرجعَا
من أرض سامرَّا إلى أرض الكنانة ... متخمًا يأسًا وحزنًا مترعا
فتَّشتُ أسألُ عن أسامة في الورى ... وأبي عبيدة يستحثُ المجمعا
فإذا بقبض الريح يطحن في شرا ... يبني فأسفح من دمائي أدمعا
فوجدت هاتيك المساحة صفصفا ... قاعا يصوح بل خرابًا بلقعا

أما القناع الشيئي : من خلال الديوان الثاني (حصاد الوهم) ،

فأي حصاد هذا الذي يحدثنا عنه الشاعر ..فكلمة الحصاد تعني جني الثمار.. فهل الثمار تعادل الوهم ؟! ...نعم في كثير من الأحيان ..الوهم والحصاد كلاهما واحد ..حين لا تثمر الثمار .. فالشاعر زهران جبر إنسان نبيل اصطدم بواقع مادي لا يعرف غير المال كقيمة عليا ، وغير النفاق كوسيلة لجمعه ..بينما هو لا يعرف غير الخير وظن أن الخلاص بالشعر؛ فواجه عالما لا يعرف قيمته ولا قيمة الشعر ؛ فانتهى أمره باليأس.. الذي ضاعت فيه أحلامه..فكان عنوان هذا الديوان الذي صاغ فيه تجربته الشعرية متقنعا وراء التركيب المكون لعتبة الديوان[٣].

(١) يراجع : من أبعاد الرؤية وآليات التشكيل ، د. مصطفى أبو طاحون ،صـــ٥٧ــ ٦٤.
(٢) قبض الريح ، ص١٠٣.
(٣) يراجع : من أبعاد الرؤية وآليات التشكيل ، د. صلاح عدس ، ص٤٨.

وهذا الإحساس بالمأساة يشكل الجو النفسي في ديوانه الذي شكله بعتبة يقف من ورائها ليُشكِل الوجدان الذاتي والجماعي من خلال الأبعاد الدلالية لهذه العتبة.

وأما القناع الشيئي : من خلال الديوان الثالث (السراب) :

فالسراب ظاهرة طبيعية ، مفادها الوهم والخيال ...فهل يقصد الشاعر أن تجاربه الشعرية ...لا قيمة لها كما يقول: الدكتور سعد أبو الرضا...لا شك أن هذا لا يمكن أبدا ، ولكن الشاعر. زهران يختفي وراء هذه المسميات تواضعا ، وربما من وجهة نظري القدرة على اللعب بمفردات اللغة التي تتيح للقارئ الوقوف طويلا حيال هذه المصطلحات ليستخرج منها كمًا من الدلالات .

وأما القناع الشيئي : من خلال الديوان الرابع والأخير (تراتيل المساء) يقف وراء مدلوله ...فيسبح من خلالها إلى ملكوت الله ..يتأمل خبايا النفس وأسرارها .. ويفك شفراتها ؛ فتصحبه إلى مدارات النور. [١].

وكما يقول الدكتور. سعد أبو الرضا : قبض الريح ، وحصاد الوهم، والسراب هذه هي العناوين الثلاثة لدواوين د. زهران جبر، وهي عناوين غير مباشرة، وهي من هذه الناحية ربما تكون قريبة من رأى (أمبرتو إكو) وغيره من أصحاب نظرية العنوان الذين يرون أن العنوان قد يكون مشوشا للمعنى، ولكنني أرى أن هذه العناوين الثلاثة مدعاة للتأمل والإيحاء والتأويل [٢] .

(١) يراجع : مقدمة ديوان تراتيل المساء ، د. زهران محمد حبر ، ص٥، مكتبة جزيرة الورد ، ط١، ٢٠١٨م.

(٢) يراجع : من أبعاد الرؤية وآليات التشكيل ، ص٩١.

رابعا ـ القناع الفولكلوري في شعر د. زهران جبر :

ويتمثل في الحيوان والطير والنبات في شعره ..حيث تتحرك فيه صور الحياة في تدفق وتسارع ...ومن هنا كان " للحيوانات والطيور والنباتات ، مجالات لا حصر لها عنده ، ولكل منها دور أساسي في الموقع الذي يختاره لها شاعرنا ، إما بالقيام بدور بطولي في أحداث قصة تحمل تجربة وموعظة وحكمة ورشادا وإما لتعميق الفهم وتسليط الضوء وتأكيد الأثر " (١).

وفي ضوء هذا تتعدد التجربة الإبداعية لدى الأديب ، فقد يستمدها من خبرته المباشرة ، ومعاناته الذاتية ، وقد يستخلصها من مراقبته للناس وملاحظته لسلوكياتهم (٢).

وهذا ما جعل الشاعر. زهران جبر ، يجعل من الحيوانات قناعا في شعره، ويسقطها على سلوكيات بعض الناس التي ربما فاقت في التخريب والتدمير صفات كثير من الحيوانات.

١ــ الحمار: يعد رمزًا وقناعا لمتبلدي الإحساس ..وقد صاغ شاعرنا قصيدة رائعة من أجمل القصائد الحوارية ..يظهر من خلالها صورة بعض متبلدي الإحساس والفكر ..وخوضهم في

التخريب والتدمير.. يقول في قصيدته (حمار الحارة) (٣):

في ليلة أخذ الحُمار قراره أن يستبيح الحي دون إشاره
ويذيق ما في الزرب من ويلاته والكل يعلن في الخفاء فراره
ويخصُ حُمْرا بالقرار وسره سيبيد أنواعا يخوض غماره

(١) تأملات في شعر الدكتور . زهران محمد جبر ، ص٢٣.
(٢) النص ...وروافد النص وتأويلاته ، د. محمد حسن عبد الله ، ص٥، ط المؤلف بدون. ت.
(٣) السراب ، صـ١٠٤.

وسَرَى يجمعُ حوله جحشانه فتوافدت للزَّرب كل الحاره

فالقناع / الحمار/ الحيوان المعروف ← المرموز له / إنسان متبلد الشعور .. لا يدرك عواقب التخريب والتدمير .. وأرى أن القصيدة حوار طريف ساقه المبدع علي سبيل الفكاهة .

٢ــ الديك ..يقول أ.إبراهيم شعراوي :" للأحلام مكانة في ديوان قبض الريح للدكتور. زهران جبر ، وهو يستخدمها كأداة للتعبير والتأثير والتنفيس عن آهاته وأوجاعه ...وفي قصيدته (الوهم والحقيقة يقدم لنا صورة حلم بزيارة ظافرة مباركة للقدس ..للأقصى ، وهو مطهر من أي تدنيس أو اعتداء وفجأة جاء الصباح ..فيقول " [١] :

لكن ديك الحي أذن بالصباح فقمت مفزوعا أغادر مهجعًا

وصحوتُ من حلم عقيم فاسد قد جرني للخلف دهرًا مفجعا

والديك ..هو رمز للصياح والأذان في عرف الشعوب الفولكلورية ، فالقناع / الديك / الطائر ← المرموز له / إنسان يصدح بصوت الحق معلنا تخليص (الأقصى) القدس من دنس اليهود .

٣ــ الخفاش ...من الطيور المنفرة المزعجة ، لكثرة حركته ودورانه دونما انتظام .

وقد صوّر به شاعرنا الأعداء وأسقطه على شخوصهم ..في قناع تنفر الناس منهم ومن أفعالهم ، وتدفعهم إلى السير في طريق آخر، فيقول في قصيدته (عزيز بديني) [٢]:

لكن خفافيشُ حطَّتْ في مدائننا والجنُ والغولُ في ركب الشَّياطين

(١) تأملات في شعر الدكتور . زهران محمد جبر ، ص ٥٢. وقبض الريح ، ص١٠١.

(٢) تأملات في شعر الدكتور . زهران محمد جبر ، ص٤٤، وقبض الريح ، ص١٨.

فالخفافيشُ / القناع / الطائر / ...وهو رمز للفوضى والاضطراب ← المرموز له / الأعداء / النهب والسلب .

٤ـ الحصان :

الحصان منذ العصر الجاهلي رمز البطولة ، ، وقد جاء اسمه من الحصن ، والفرس من الافتراس ، وكانوا يسمون الحصان (زاد الراكب) ؛ لأن الفريق يخرجون بلا زاد وهم واثقون أنهم سيصطادون وعلا بفضل الدابة التي تحملهم وتنطلق كالريح خلف الفريسة .. وقالوا إن الخيل كانت وحشا لا يطاق ، ثم سُخِّرت لإسماعيل عليه السلام ..وقد أمدَّ امرؤ القيس المعجم اللغوي بإضافات كثيرة عن الخيل وصفاته من مثل : قيد الأوابد / دريد / صراية الحنظل / خواف العقاب / كذيل العروس .. [١].

وفي العصر الحاضر اضطربت بعض القوى العربية بسبب المخربين ...مما جعل الحصان العربي يتعثر .. فلم يعد كما كان ..يقول شاعرنا في قصيدته (الشراع التائه) [٢]:

مضمار أفراسنا شاراتها شطط في أول الشوط زيف والمدى نحسُ

فالقناع / الفرس / الحصان / الحيوان المعروف ← المرموزله / الفارس .. المتكاسل ...الذي أنام حصانه .

---

(١) يراجع : قراءة في شعر الخيل ، د. أبوالقاسم رشوان ، ص٤ــــ٦، الناشر دار العلم بالفيوم ، ط١، ٢٠٠٠م .

(٢) قبض الريح ، ص١٤٧.

لكن الشاعر لا ييأس ..يقول في قصيدته (كامل العدد) [١]:

يا مَنْ ترجل عن ظهر الجواد ولــن ينسى عدوُّك (بدرًا) أو رحــى (أُحُــد)
أسرجه كالبرق واقفز فوق صــهوته سابق به الريح واسلل ســيفك الفــرد

٥ـ الجمل :

كان الجمل سفينة الصحراء ، منذ كان العربي ربانا وقائدا بحريــا ... ويــوقظ شاعرنا الهمم لدى أبناء زمانه الحاضر،فيقول في قصيدته (يا سيد العرب) .. [٢].

عودي إلى الشيح والقيصوم وارتحلي فوق البعيــر وعَلِّــي المــاء بــالقرب

وهو أسلوب أمر رائع يهدف إلى إثارة الهمم والعمل علــى رقــي الــوطن وتقدمه.. كما لا يقف القناع والرمز عند شاعرنا في المخلوقات الحية المتحركة .. بل تتعداها إلى النباتات ، فيرى لها إرادة حرة ، فهى ترفض الحيــاة علــى أرض أصلها سبخ ، وهي تصر على الحياة تتشبث بــالأرض بجــذورها ، ولا تنتظــر الراعي والساقي ، بل تمتد جزورها إلى أسفل ، ثم تتجه يمينا ويسارا بحثا عــن الماء والغذاء ، وهي تدافع عن نفسها ضد المعتدين بــإطلاق روائــح أو طعــوم تبعدهم ، أو تجذب إليها مخلوقات أخــرى ، وتغريهــا بالعســل ولذيــذ الطعــام والشراب، لتنقُل لها حبوب اللقاح إلى نباتات بعيدة لا تسطيع الوصول إليها ..وفي قصيدته(يا مصر[٣]) ..يلح على أبناء الوطن للمحافظة عليه من خلال الحديث عن الأرض والنبات فيقول :

ما لي أراكِ جفتــكِ المــدنُ قاطبــةً واستلقفتْك حواري التِّيــه والغــــيرُ
يا دوحة َالمِسك والأزهــارُ ذابلــةً فاستبُت الشــيح ُوالقصــيوم ُوالإبــرُ

(١) قبض الريح. زهران محمد جبر ، ص٩٩.
(٢) السابق : ص٩٧. وتأملات في شعر الدكتور. زهران جبر ، ص٤١ .
(٣) السابق: ص١٣٧.وتأملات في شعر الدكتور . زهران جبر ، ص٥٤.

فكأن الشاعر قد جعل من النبات والزهر معادلا ورمزا وقناعا ربما يستفيد منه الإنسان.

وعن مصر وجمالها وأشجارها وحدائقها يقول الشاعر [1] :

هذه المزاميرُ في الغيطان ما صدحتْ إلا ليرقُص في ألحانها الشجرُ

حقا ، إن شعر د. زهران جبر هو عالم يموج بالحياة والأحياء .

(١) قبض الريح ، ص١٣٧. ،تأملات في شعر الدكتور . زهران محمد جبر ، ص٥٧.

الفصل الثالث

التشكيلات البنائية لظاهرة القناع في شعر الدكتور. زهران جبر

في ضوء الشعرية الحديثة ، أصبحت القصيدة المعاصرة تمثل نوعا من الكشف والارتياد ، بمقدار ما هي نوع من المعاناة المرهقة والجهد المضني ..كما أنها تعد مغامرة يحاول من خلالها إكساب المتلقي معنى جديدا [1].

وشاعرنا الدكتور. زهران جبر من خلال تمكنه من أداته اللغوية لم يقف عند شكل القصيدة التقليدية ..بل شكَّل تجربته الشعرية بوسائل تكنيكية حديثة كالقصة والحوار والكوميدية الساخرة ...حتى وجدتُ أن التشكيل الفني البنائي لظاهرة القناع ..تبرز من خلال ثلاث بنى رئيسة وهي :

أولاً ـ البنية الخطابية ... وربما تكون السمة الغالبة ..وقد قدمتُ لها من خلال النماذج الشعرية السابقة ..ولا حاجة لذكر نماذج أخرى .

ثانياً ـ البنية السردية القصصية .

ثالثاً ـ البنية الدرامية الكوميدية .

(١) يراجع : عن بناء القصيدة في الشعر العربي المعاصر ، د. عللي عشري زايد ، ص١١، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر ، ط٤، ٢٠٠٢م.

ثانيا ـ البنية السردية القصصية :

وفي هذه البنية يقوم الشاعر أو المبدع بتوظيف بعض الأدوات التكنيكية يستعيرها من الفن الروائي أو القصصي مثل القص والاسترجاع، والحوار والمونولوج الداخلي(١).

ويلجأ الشاعر إلى مثل هذا لإثراء تجربته الفنية ، ولإجراء حوار مع المتلقي من حيوية النص وإثارته .

وقد اعتمد الشاعر زهران جبر على الفن القصصي في بعض قصائده من خلال ظاهرة القناع ، ففي قصيدته (ماذا لو فقدت الذاكرة) يبدأ حكايته بسرد بعض التفاصيل عن العصر الغريب في صورة تجمع بين المرارة والمرح بتقديم عالم مجنون كاريكاتيري في قصة شعرية قائلا (٢):

عصرٌ غريبٌ كل ما فيه غريبُ الظاهِره
زمنٌ عجيبٌ ما جرى فيه يشِلُّ الذاكره

ويستعرض الشاعر. زهران جبر مظاهر هذه الغرابة في مواقف وصور فوق طاقة العقل والتصور فيسرد حكايته :

أوَ مَا سمعتَ بنملةٍ فيه تجرُّ القاطره
ودويبةٍ خرساء دون الذرِّ باتت شاعره
والسلحفاة وخلفها الآرامُ تعدو خائره
فازتْ بأشواط السباق فَيَا لَهَا من ماهره

(١) يراجع :عن بناء القصيدة في الشعر العربي المعاصر، د. علي عشري زايد ، ص٢٠٩.
(٢) قبض الريح ، ص١٢٠.

والغريب في هذه القصة ،أن السلحفاة فازتْ على الآرام ..مع أن أنها لم تنم ؛ إلا أن السلحفاة بإرادة لا تُقهر واصلت السير ولا تحس بالتعب ،بينما الآرام تلهث وتقطع الأنفاس، ويصيبها الإنهاك والخور ..ثم يستمر الشاعر في حكايته العجيبة حيث إن الشاعر العربي القديم يقول: كناطح صخرة يوما ليوهنها فما استطاع وأوهى قرنه الوعل ؛ أما شاعرنا.. فيأتي بصورة عكسية ، تجعل الوعل يفتت صخور الجبال مثل حفارة ميكانيكية...لنستمع إلى القصة الغريبة والرائعة يقول(١):

وذبابةٌ جزَرَت بْقرنَيْها البعيرَ مكابره
ألقت به في جوفها واستمرأته كخاطره
والجحش يصبغ لُمَّتَيْهِ ويستطيل غدائرَهْ
والوعلُ ناطحَ صخرةً فأَتَتْ إليه صاغره

ومن خلال هذه القصة البديعة والغريبة والمقنعة والتي يحكيها عن الحوار والسباق بين الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات ..فإذا به يتنقل إلى الغرض من الحكاية ..يتنقل من هذه الصور المدهشة إلى واقع العرب في صفوف الحضارات ، وبعضهم يطرقع كلمات المجد والعزة والكرامة ، ولا يعرفون ما تحت أرضهم من كنوز ، فيأتي الأعداء للتخريب والتدمير ... وهذه صور من الغرائب والعجائب ..أبدع من خلالها شاعرنا واستطاع أن يوظف القناع للهدف المنشود .. فلا زواحف ولا حشرات ..وإنما هو تقنُعٌ وراء هذه المسميات .. ويُعبرعن ذلك قائلا من خلال سرده الحكاية :

(١) قبض الريح ، ص١٢٠، وتأملات في شعر د. زهران ،ص٣٢.

واليَعْرُبيُّ بسمهِـــهِ المسمـــومِ أســقط طائـــره

وعلـــى الأتـــان مقرفصـــا عـــادي الجيـــاد النـــافره

كما يسرد الشاعر في حوار رائع ... أن السبب في تكالب الأعداء علينا ، أننا لا نتعامل جيدًا مع تراثنا ولغتنا ...فيقول[1] :

واســـتُحدثت لغـــة مُخنثـــة المَعـــالم غـــادره

تســـتلهمُ القُـــبحَ وتشـــوي مثـــل لفْـــح الهـــاجره

ويخشى الشاعر أن يفتح عينيه على الحقيقة جراء ما يحدث من اضطرابات ، فيتمنى لو أنه فقد ذاكرته ..مع أن تاريخ الأمة ناصع ويستطيع أن يقودها إلـــى الرقي والازدهار ويجعلها في مقدمة الحضارات ..

وفي زحمة الأحداث ــ خـــير ــ لو فقدت الـــذاكره

وفي زحمة المتناقضات والأخلاق الذميمة في بعض المجتمعات يوظف شاعرنا الدكتور.زهران القصة من خلال القناع بهدف إبلاغ رسالته، و قد تمظهرت تقنية الرمز في العنوان بالقصيدة ، وفي تكتيكها الفني إجمالاً ؛ حتى بنى بعض قصائده على حكايات الحيوان ، كما في نصوص (القرد والقرَّاد، الدور والتسلسل، الغربان والديك) ففي الأولى منها : تتجلى السردية والرمزية القاصدة إلى بيان تحـــولات الحياة، وتقلبات الزمان، وضرورة تحصيل الكرامة ؛إذ يحكى عن قرَّاد أدمن إهانة قرد، طامعاً في استغلاله لأبعد مدى .. فالشاعر يُقدم من التراث الشعبي والعـــالم قصصا يؤكد بها على أن الطمع والجشع والحصول على المال بأي سبيل ، ولـــو من مخلوقات بريئة لم تسئ ،عمل شائن يستحق العقـــاب ...والقصـــة الشـــعرية

(١) قبض الريح ، ص١٢٠،١٢١. وتأملات في شعر د. زهران ،ص٣٢.

السردية ، كما في قصة القرَّاد الطماع في القصة الشعرية (القــرد والقــرَّاد) ، ومطلعها بين المغزى والهدف الذي يسعى إليه الشاعر في قناع رائع قائلا [١]:

مطمــعُ القــرَّاد أدنــى مصــرَعَهْ ... لم يكــن يرضــى، فجــارى مطمعــه
طــاف جــوَّالاً تمنــى ثــروةً ... ليــتَ مــا حِيــزَ لــه قــد أقنعــه
عــاد (بــالأبلاج[٢]) قِــرد وادعٌ ... مــن قــرود الغــاب حتــى يُطْبِعَــهْ
شــده فــي غُرفــةٍ مُظلمــة ... ضــافه للصــبح ضــرباً أوجعــه
يصطفيه مــن صُــنوف الــذَّل مــا ... جعــل (الميمــون) يهــوَى مصــرعه

ويسرد الشاعر صورة تخويف القرد:

مــرة يــذبح ديكــا صــائحا ... بــين عينيــه ويــردي ضــفدعه
أو يُريــق الــدَّم أنهــارًا علــى ... مِحــبس المجلــوب حتــى يجزعــه

حتى جاوز الظلم مداه ، يقول:

جاوَزَ الظلــمُ بــه أقصــى المــدى ... فــاختلى لــيلاً كراعــي صــوْمعه
بــات يَســتجدى خفــاءً حيلــةً ... كيــف ينهــي مــرةً مــا أفجعــه

ثــم إن القرد دبَّر حيلةً تخلِّصه من عذاب القرد فيسرد الشاعر هــذه القصــة قائلا[٣]:

فــي هجــوم باغِــتٍ .. قــام بــه ... اعتلــى ميمــونُ رأســاً صــدَّعه
ارتمــى القَــرَّادُ أرضــاً .. يســتفي ... مــن خلــيط النــزف تُرْبًــا أشــبعه
زاد خمشــاً يُنفــذ الجُــرح إلــي ... مكمــن القلــب الــذي قــد روَّعــه

(١) قبض الريح ، ص١١٢،١١٣. وتأملات في شعر د. زهران ، ص٧٥ : ٧٨.
(٢) (الأبلاج) : صنف من جنس القرود.
(٣) قبض الريح ، ص١٢٠.

جنـــدل الطمـــاعَ .. وافـــي حَتْفَـــهُ ضجَ من في الحشـــد هـــذي موقعـــه
.. ثـــم فـــكّ القيـــدَ، يمحـــو ذُلَّـــهُ صـــار حـــرًّا ســـيداً .. لا إمَّعَـــهْ

وينهي سرديته الرامزة المقنعة بالحكمة المستخلصة،والعبرة المستفادة على نهج لافونتين وشوقي، فيقول بالمختتم [1]:

يالَـــهُ مـــن حـــادثٍ .. فيـــه عِظـــه واقـــعٌ ..لا مـــن خيـــال أبدعـــه
تسخرُ القردانُ مـــن عقـــل امـــرئٍ ضـــلَ ..لا يســـعى لجلـــب المنفـــعه
فـــإذا خيَّرتـــه فـــي مـــسلكٍ يصـــطفى للـــنفس حمـــل "البردعـــه"

وجليٌّ لكل ذي عقل، أن القناع ــ من خلال السياق ــ ينير النص ، فيصرف المتلقي إلى عديد من القراءات للنص ..كما أن رمز أو قناع الشاعر زهـــران ــ ولأنه شاعرٌ رسالي ــ يهدف إلى الوعي في كثير من الأحيان ، ولأنـــه مبـــدع يمتلك أداته الفنية، ورمزه شفيف دالٌّ، ليس فيه من الغمـــوض إلا قشـــرة الفـــن الراقي الذى يقصد إلى غايته من طريق غير مباشر.

ثالثا ـ البنية الدرامية الكوميدية :

ومن خلالها يتجه الشاعر اتجاها واضحا نحو الدرامية ، سواء في مضـــمونها النفسي أو الشعوري أو الفكري ، أو في بنائها الفني ..ويحاول الشاعر من خلالها أيضا أن يعبر عن تعدد الأبعاد والمستويات[2].

وفي قصيدته (الدور والتسلسل) درامية مقنعة رامزة إلى خطورة الاستعانة بالغير لحل مشكلات الذات (فما حكَّ جلدَك مثلُ ظفرك فَتَوَلَّ أنت جميعَ أمرك) وهى رمزية تحكي عن توريث لأمر ما مِن طرف آخر، مَنْ استعان بهم أهلُ الدار

(١) فيض الريح ، ص١١٢، ومن أبعاد الرؤية وآليات التشكيل ، د. مصـــطفى أبوطـــاحون، ص٧٧.

(٢) ينظر:عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، د. علي عشري زايد ، ص١٨٩.

من كلابٍ سبقتهم الهِرَة للتخلص من الفأر... يقول بنهايتها حاكياً عن استسلام أهل الدار لكلب استعانوا به للتخلص من الفأر فى حكمة بليغة[1]:

فكـــروا فيمـــا يـــــذُب الفـــأرعن هـــذا الشـــغف

قيـــل : هـــاتوا الهَّـــر خصـــم مستشـــار ذو كلـــف

.....

واستسلموا للكلـــب ينهـــــبُ قُـــوتَهُمْ لا لـــمَ يَخَـــفْ

.....

وقال ســـوف نزدهـــي فـــي العـــز يغمرنـــا التـــرف

والكلـــبُ بعـــد تمخُـــض يـــأتي بِجَـــــرْوٍ يعتســـف

والجـــروُ يأخـــــذ دورَه فـــإذا بكلـــبٍ محتـــرف

وفي قصيدته (الغربان والدِّيك) تتجلى الدرامية بقناعها [2]حيث يقول :

قالـــــتْ الغِرْبَـــــان : للـــــدَّيكِ صِـــــياحٌ مُسْـــــتفزّ

يســـرقُ النَّـــوم مـــن الأوكـــار مـــن أرض المُعـــزّ

صـــوته يصـــدح فـــي الآفـــاق جـــــوابا يَهـــزّ

نَسْـــــجَ أعشـــــاشٍ بنيناهـــــا بخيبـــــرَ أو تعـــــزّ

(...) وصياحُ الدِّيك أحيا الـــروح فـــي قلـــب حَفِـــزّ

فاســـــتعارت للشـــــرايين دمـــــاءً مـــــن قُطُـــــز

(١) قبض الريح ، ص١٢٩،١٣٠، ومن أبعاد الرؤية وآليات التشـكيل ، د. مصـطفى أبـو طاحون ، ص٧٨.

(٢) قبض الريح ، د. زهران ، ص١٥٠.

ومن القصائد الدرامية المقنعة أيضا عند شاعرنا قصيدته (الذئب والأوعال)[١]، حيث يقدم الشاعر القصيدة على شكل فصول درامية متحركة لها بداية ووسط ونهاية ...يقول الشاعر في الفصل الأول من القصة [٢]:

في قصة الذئب والأوعال موعظةٌ تُبكي وتُضحك في آن من العجب
إذ طاف وَعْلان يوماً بالحمى خَبباً بحثًا عن المير في جدٍّ وفي دأب
وبينما الأرض تطوى تحت سعيهما إذا بذئب جريحٍ ..في الفلا تعب

حيث تبدأ القصة بحركة وَعْلين على صخور في الجبل في مهارة ورشاقة وقد أبصرا ذئبا جريحا يلتوي من الألم ..وقد طال به المقام وهو على هذه الحال ، ولا يجد من يسعفه أو يرعاه ، فذبل عوده وبدت عظامه ، وزاد بؤسه ....حيث يصور الشاعر حاله قائلا [٣]:

أمسى عظاما وأضحى يائسا وجلا عَثرا عليه لقيطا بيَّن السَّغب
رثًّا ..تكاد وجوه الأرض تلفظه من نتنه البخر يؤذي أبعد الشُهب

فهذه صورة وصفية تتفوق على التصوير السينمائي ، بما تثيره الرائحة النتنة للجراح من آثار ..

وفي الفصل الثاني من القصة الدرامية المقنعة يبلور الشاعر ويصور وصول الوعلين واصطدامهما بحال الذئب البائس ، وما دار بينهما ..فيقول [٤]:

قالا:الشهامة أن نأتي به عجلا للحيِّ يُشفي من البأساء والكرب

---

(١) الأوعال : حيوانات ذات أظلاف من جنس العنز، وهي أوفر لحما وشحما وأصلب قرنا ، وأقدر على منازلة الذئاب.

(٢) السابق ، ص٩٤. ويراجع : تأملات في شعر د. زهران ، ص٢٣.

(٣) قبض الريح ، د. زهران ، ص٩٤. ويراجع : تأملات في شعر د. زهران ، ص٢٤.

(٤) السابق ، والصفحة.

.....

وأنزلوه بكــوخ بيــنهم ...كرمــا يأوي إليه مع الترَّحاب عــن كّثــب

.....

وفي الفصل الثالث من نهاية القصة الدرامية ، يصور الشاعر جراح الذئب وقد اندملت ، ودبت في جسمه العافية ..واستطاع أن ينتصر على أعدائه ..وأن يسترد عافيته رغم المعوقات التي قابلته

من مرض وغيره ..حيث يقول [1]:

وعاش في الكوخ والنعمى تحف به وشام في النفس ما يُغريه بالشَّــغب

واشتد فوق دروب الحي سِّــاعده من نتنه البخر يؤذي أبعــد الشُــهب

.....

يَنسلُ بالليــل يســتقوي مخالبُــه في البيد يرتاض مثل الجحفل اللَّجب

وهكذا ظل عهدًا ينــزوي سَــحَرًا حتى استعاد فنــون الكــرِّ والطلــب

ومن خلال هذه الدرامية يلحظ المتلقي صورة الذئب وذكائه ..التي تلبس بهــا مراقبوه ..لكنه لا يفقد الأمل في الانتصار ؛ مهما كان أعداؤه ..وهنا تظهر رسالة الشاعر وهدفه في تشكيل وعي الأمة العربية لتحقق الانتصار والعزة ــ من خلال أبنائها المخلصين الساهرين للدفاع عن كل شبر من أرضــها ــ مهمــا قابلتهــا الأحداث والمعوقات ..حيث أننا نلحظ من خلال هذه القصيدة صورة الــذئب فــي حالتي الانكسار والانتصار .

(١) قبض الريح ، د. زهران محمد جبر، ص٩٥.

ولا يزال الشاعر زهران جبر يرحل إلى عالم الواقع ... ويرصد ما به من شرور يسجلها شعرا كما نرى في قصيدته (الإنسان وشره) حيث يقول (١):

شققَ العصفورُ موفور السَّلامه فوق غُصن البان ترمُقُه يمامهْ
وابتنى عُشا وأتقنه صناعه ومضى يلهو على فرع أمامهْ
حوله فرخ ُالزرازير انتعاشًا صَوصَوتْ في بهجة ترفع قامهْ

.....

لم تكن تقوى على الطير ولكن عندما تصفق بشرًا في ابتسامه ْ

.....

واليمامة مثلها تزقو ولكن حزنها باد وفي القلب قتامهْ

.....

للعصفور أليفًا لم يعد قد غاب والليل سجى يدني ظلامه ْ

....

فدنا العصفور منها كي يواسي وبكل الود ِّ يسمعها كلامه
جارتاه نحن لن نسلم ممن دمرَّ الأرض وحولها رُكامهْ

فيجد المتلقي من خلال هذه الدفقة الدلالية ، قصيدة بها القناع والرمزية أبطالها العصافير واليمام ولكنها فى الحقيقة إسقاط على واقع.... ربما يوجد في كل المجتمعات ذلك الصنف من الناس الذي يسعى إلى الخراب والتدمير دون وازع من ضمير حتى أنه فقد معنى الإنسانية، ويتمنى الشاعر لو أن الله جل وعلا أباد

(١) السراب ، د. زهران ، ص٣٣.

هذا الصنف من البشر لأصبحت الدنيا أمنا وسلاما ونصغي إليه في هذه الأبيات حيث يقول [١]:

شره زاحم هذا الكون قتلا فاكتسى وجه القناديل الدمامهْ

....

لو أباد الله هذا الصنف كانت هذه الأفاق أمنا وسلامهْ

وإذا كانت المعاني ملقاه على قارعة الطريق تنتظر من يلتقطها ويحيلها إلى عمل فني جميل – كما يقول الجاحظ – فإن شاعرنا د/ زهران جبر استطاع أن ينتقي المعاني الفريدة ويلتقطها ويصيغها في صورة قصائد بديعة كأنها حلى مطعمة بالجواهر الثمينة[٢].

ولا شك أننا نجد في هذه القصص الدرامية ــ المعتمدة على العلاقات بين الحيوانات في شعر د. زهران جبرــ قيما أخلاقية وفكرية ممزوجة من الواقع والأسطورة .

كما أنني حين قرأت ُهذه القصائد للشاعر الدكتور.زهران جبر .. كأني بـ (عبد الله بن المقفع ــ ت ١٤٢هـ)، المُترجم الذي ترجم كتاب (كليلة ودمنة)...؛لذا ؛ فإن من المميزات الخاصة لحكايات الحيوانات في شعر د. زهران من خلال ظاهرة القناع أنه يمكن قبولها للقراءة على مستويات مختلفة ، فالصبي الناشئ يمكن أن يجد فيها حكايات طريفة ،والناضج يجد فيها كشفا لعوالم جديدة .

(١) السراب ، د. زهران ، ص٣٤.

(٢) يراجع:من أبعاد الرؤية وآليات التشكيل في شعر د. زهران جبر،نوال مهني ، ص١٢٣.

وبعد أن وصلت مع شاعرنا في الإطلالة على ظاهرة القناع ...لا أملك في نهاية هذه الرؤية الموجزة ؛ إلا أن أقول إن الشاعر المبدع الدكتور/ زهران جبر يتسم بصدق المشاعر وعفوية التعبير وقوة المعنى ورصانة الألفاظ .

مع أنني أسجل بعض الرؤى لي حول شعر الشاعر ومنها :

ــ غلبة نبرة الحزن والجو السوداوي الذي خيم على شعر الشاعر من خلال دراستي لهذه الظاهرة (أعني ظاهرة القناع) ويظهر ذلك من خلال قصائده المقنعة ، فضلا عن عناوين الدواوين (قبض الريح ، حصاد الوهم ، السراب ، تراتيل المساء) التي توحي بفقد الأمل والضياع ..وأرى أنه كان على الشاعر أن يتمسك بالأمل وأن يترسم خطاه ..وأن يتخلص نوعا ما من النبرة الحزينة المثقلة بالهموم .

ــ يكثر الغموض في شعر د.زهران جبر من خلال هذه الظاهرة (القناع) مما يرهق المتلقي في الوقوف على مقصد الشاعر من خلال سياق القصيدة ...وإن كان ذلك يؤدي إلى تعدد الدلالات والقراءات وهذا هو مقصد القناع .

ــ هناك بعض المبالغات في شعر الشاعر من وجهة نظري ، ومنها : قول الشاعرد.زهران يُكبر صنيع حسن نصر الله الشيعي في مقاومته للعدو الصهيوني:

(السيفُ أصدق أنباءً من الكتب) فاقطعْ رقاب العَدا يا سيَّد العَرب

لا مثلُ مثلك في الأعراب قاطبةً يا مَعقدَ العزِّ قوض واهم الصَّخب

فهو ليس بسيِّد للعرب ..ولكنه وصفٌ من الشاعر لهذه الشخصية ..وأقول إن الأمة العربية والإسلامية ــ بأبنائها المخلصين المدافعين عنها وعن كيان الأمة العربية جمعاء وبأزهرها الوسطي ــ لقادرة لحمل السيادة والريادة والمكانة .... وفيها مّنْ هم أهل للسيادة والريادة على مر العصور .

الخــاتمة

من خلال هذا البحث الذي تناولنا فيه ظاهرة القناع في شعر الدكتور. زهــران جبر، يمكن أن نستخلص النتائج التالية :

ــ أن الدكتور. زهران يُعد واحدًا من شعراء العروبة والإسلام .

ــ أن هذه الظاهرة تمثل جانبًا كبيرًا ومُهما في شعره ،فهي تركز علــى معالجــة قضايا الواقع للأمة العربية والإسلامية .

ــ هناك الكثير من الدوافع التي تجلت في بروز هذه الظاهرة في شعره ،ومنها : دوافع اجتماعية ، إسلامية ، فنية أدبية .

ــ وظَّف الشاعر القناع توظيفا فنيا رائعا ، من خلال المستويات التي تعامل معها

ــ ربط الشاعر من خلال القناع بين التراث والمعاصرة، وهذا يدل علــى أصــالة شاعرنا، ووعيه العميق بالحاضر .

ــ يُعــــد شعر زهران جبر رساليًا من خلال إثارة الوعي في شعره .

ــ يُمثل القناع جانبا من الاغتراب النفسي والزماني والمكاني لدى الشاعر .

ــ أعطت ظاهرة التقنع للنص الانفتاح على أكثر من دلالة باختلاف التأويل .

ــ مزج شاعرنا بين التجربة الذاتية والتجربة الجماعية من خلال هذه الظاهرة .

ــ انطلقت ظاهرة القناع لدى الشاعر من لحظة شعوره بافتراقه عن محيطــه أو شعوره بالتقاطع مع واقعه .

ــ عمد الشاعر في ظاهرة القناع على الاستعانة ، برموز مختلفة من بيئات متعددة .

ــ غلب على قناع الشاعر،الاتكاء على رموز وشخصيات تاريخية وحضارية .

ــ اتسم القناع في بعض أحواله بالحوارية والسرد والقصص.

وبعد .. فإني أرجو الله عز وجل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليــه مــن كتابةٍ في هذا الموضوع، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،،

أهم المصادر والمراجع :

القرآن الكريم .

الحديث الشريف .

أولاً: المصادر:

١ــ تراتيل المساء،د. زهران جبر، مكتبة جزيرة الورد، ط١،عام ٢٠١٨م .

٢ــ حصاد الوهم ، د. زهران جبر مكتبة مصر بالقاهرة ، ط١عام ٢٠١٦م للكتاب .

٣ــ السراب ، د. زهران جبر ،مكتبة الآداب بالقاهرة ، ط١عام ،٢٠١٨م .

٤ــ قبض الريح ، د. زهران جبر ، مكتبة الآداب بالقاهرة ، ط١عام ٢٠١٢م.

ثانيا : المراجع :

١ــ اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، د. إحسان عباس ، سلسلة عالم المعرفة،الكويت ،عدد٢ ،ط ١٩٧٨م .

٢ــ استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د.علي عشري زايد ، دار الفكر العربي ،ط ١٩٩٧م .

٣ــ البيان والتبيين ، للجاحظ ، ، تحقيق . عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، بالقاهرة ، الشركة الدولية للطباعة والنشر ، ط٢٠٠٣م .

٤ــ تجربتي الشعرية ، عبد الوهاب البياتي،ط دار العودة ، بيروت ، لبنان ط ١٩٧٣م .

٥ــ تحديث الشعر العربي ، (تأصيل وتطبيق) ، د. حامد أبو أحمد ، مكتبة الآداب ، ط١ ٢٠٠٨م.

٦ــ التفاعل النصي (التناصية النظرية والمنهج) ، نهلة فيصل الأحمد الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط ١ ، ٢٠٠١م .

٧ــ التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر ، د. عصام حفظ الله واصل ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١، ٢٠١١م .
٨ــ جدلية التراث والشعر (استلهام الشاعر القديم في القصيدة المعاصرة) ،د. إكرامي فتحي حسين ، مكتبة الآداب ، ط١، ٢٠١٦م. .
٩ــ ديوان ابن نُباتة السعدي، تحقيق ودراسة عبد الأمير مهدي حبيب الطائي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، العراق ، ط ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م .
١٠ــ ديوان أبي تمام، شرح التبريزي ، دار المعارف . بدون .ت .
١١ــ رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر ، د. جابر عصفور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢٠١٢م .
١٢ــ الشاعر والتراث ، د. مدحت الجيار، الهئية المصرية العامة ، ط ١، ٢٠١٧م .
١٣ــ شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، معلقة عنترة بن شداد ، ت. طه عبد الرؤوف سعد ، دار الحرم للتراث، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٦م .
١٤ــ عن بناء القصيدة في الشعر العربي المعاصر ، د. علي عشري زايد ، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر ، ط٤، ٢٠٠٢م.
١٥ــ قراءة في شعر الخيل ، د. أبو القاسم رشوان ، الناشر دار العلم بالفيوم ، ط ١، ٢٠٠١م .
١٦ــ القناع الدرامي والشعر، فاضل تامر ، مجلة الأقلام العراقية ، ط ١٩٨١م
١٧ــ لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر بيروت ،بدون ت.
١٨ــ مجلة الموقف الأدبي ، مقال بعنوان (قصيدة القناع في الشعر السوري المعاصر)، د. محمد عزام ، اتحاد الكتاب العرب ، ط ٢٠٠٥م .

١٩ــ معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية ، د.إبراهيم حمودة ، ط دار الشعب ، لقاهرة ، ط ١٩٧١ م .

٢٠ــ معجم مصطلحات الأدب ، مجدي وهبة ، كامل المهندس ، ط بيروت لبنان،ط ١٩٧٤م.

٢١ــ مفارقة الرمز والقناع في شعر محمد سليمان ، د. ديانا حسني النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢٠١٨م .

٢٢ــ المفارقة والقناع في الشعر العربي المعاصر ، د.مروة محمود الشرقاوي ، دار النابغة للنشر والتوزيع ، طنطا ، ط١، ٢٠١٥م .

٢٣ــ من أبعاد الرؤية والتشكيل في شعر د.زهران محمد جبر ، جمع وإعداد د. زهران جبر، مكتبة جزيرة الورد ، ط١، ٢٠١٩م.

٢٤ــ النص ...وروافد النص وتأويلاته ، د. محمد حسن عبد الله ، ط المؤلف بدون . ت.

٢٥ــ النص والقناع (قراءات في قصيدة النثر) ، د. أحمد الصغير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢٠١٧م .

٢٦ــ هكذا تكلم النص (استنطاق الخطاب الشعري) لرفعت سلام ، د. محمد عبد المطلب ، سلسلة دراسات أدبية ،الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ط ١٩٩٧م.